

كتاب
د. زكي مبارك
اللغة والدين والتقاليد



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

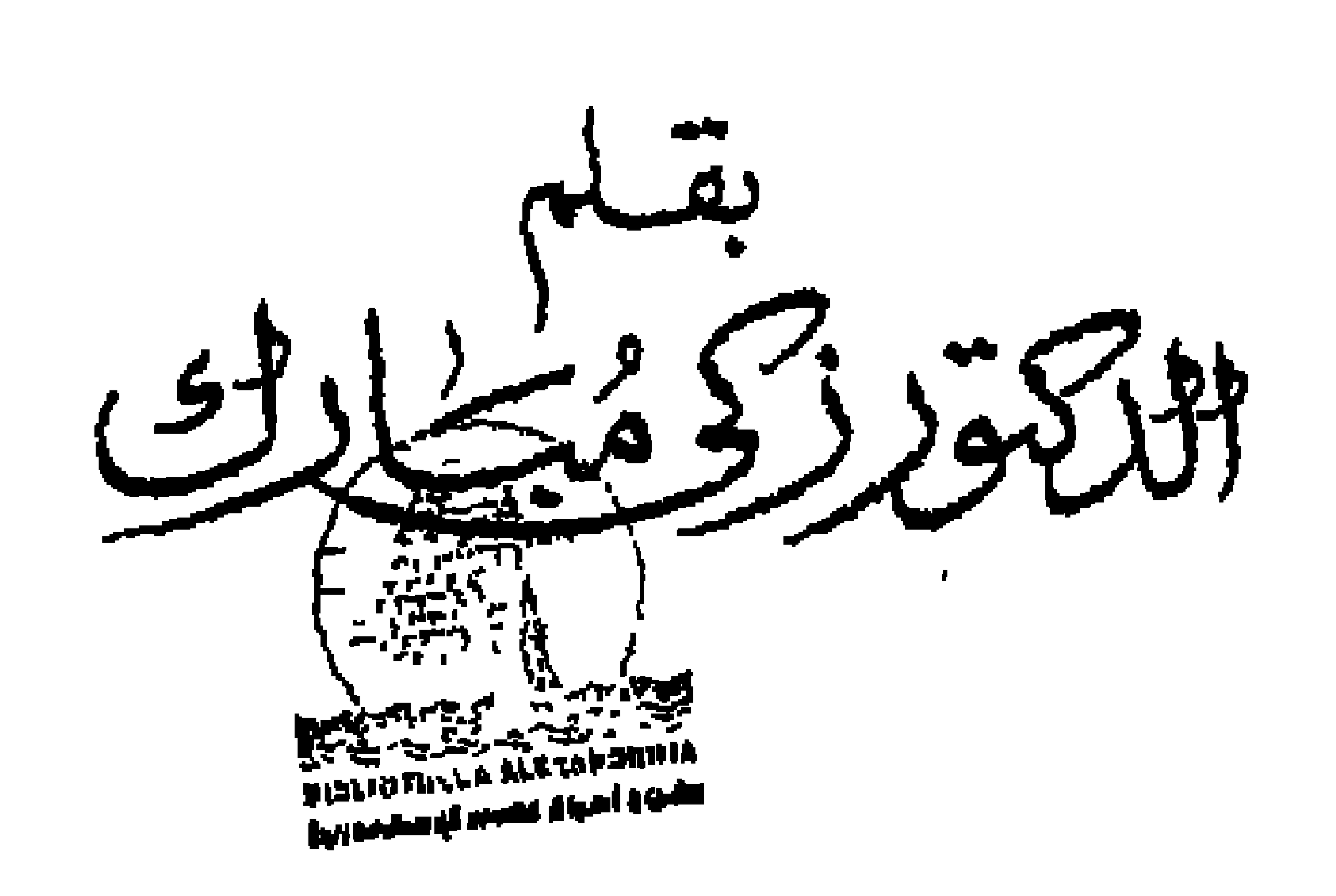
العدد ٤٧٦ ـ محرم ١٤١١ ـ اغسطس ١٩٩٠

اسعار البيع للعدد فئة ١٥٠ قرشاً

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٦٠٠ فلساً ، الكويت : ٥٠٠ فلساً ، العراق : ١ دينار ، السعودية : ٧ ريالات ، تونس : ٢ دينار ، المغرب : ٢٠ درهم ، البحرين : ١٫٢٠٠ دينار ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، الجمهورية اليمنية : ١٠ ريالات ، غزة : ١٫٢٥ دولار ، لندن : ١٫٥٠ جك .

الغلاف تصميم الفنان :
محـــمد ابو طـــالب


اللغة
والدين والتقاليد


بقلم
الدكتور زكي مبارك

قصة الدكاترة زكى مبارك

بقلم : كمال النجمى

تصدر سلسلة «كتاب الهلال» فى الشهر الحالى كتاب «اللغة والدين والعادات .. باعتبارها من مقومات الاستقلال» وهو بحث كتبه الأديب الكبير المرحوم الدكتور زكى مبارك منذ أكثر من خمسين عاما .. وفيما يلى المقدمة الجديدة لهذا الكتاب الذى مازال يحتفظ بطابع الحداثة ومسايرة العصر ، رغم مرور نصف قرن على تأليفه ..

فى مثل هذا الشهر منذ تسعة وتسعين عاما ولد مؤلف هذا الكتاب ، الدكتور زكى مبارك رحمه الله ..

وكتابه هذا يصدر فى ٥ أغسطس أى فى اليوم الذى ولد فيه زكى مبارك سنة ١٨٩١ ، بعد ميلاد طه حسين وعباس محمود العقاد بسنتين فقط ،

فهو أديب كبير من جيل كبار الأدباء في مصر والعالم العربى الذين برزوا منذ العقد الثانى من القرن العشرين ، ومازال أثرهم باقيا ، ولن يزال ..

وهذا الكتاب «اللغة والدين والعادات» أنشأه زكى مبارك فى ظروف لم يتعرض لمثلها طه حسين ولا العقاد ولا أحمد أمين وأمثالهم من أدباء ذلك الجيل فهؤلاء كانوا فى غنى عن التقدم بكتبهم إلى «المسابقات الأدبية» طلبا لقليل أو كثير من المال يستعينون به على الحياة . أما زكى مبارك فإن الحياة دفعته إلى التقدم بهذا الكتاب إلى مسابقة أدبية آقامتها الحكومة المصرية فى أوائل عام ١٩٣٦ وحددت لها بحوثا يكتب فيها المتسابقون ، كان من بينها بحث فى «اللغة والدين والعادات ، باعتبارها من مقومات الاستقلال» .. وقد جذب هذا البحث بخصوصه أقلام عدد من نبهاء الأدباء ، من بينهم زكى مبارك ..

ملك الشعراء

كانت هذه المسابقة الأدبية التى سميت فى

وقتها «المباراة الكبرى» تشمل الشعر والنثر . واختار زكي مبارك ميدان «النثر» ، وترك ميدان الشعر ، مع أنه ـ رحمه الله ـ كان يسمى نفسه «ملك الشعراء» .. وإنما ابتعد عن الشعر فى تلك المباراة لأن الشعر فيها كان مقصورا على نظم «نشيد قومى» للعهد الجديد الذى أظل البلاد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ودخول مصر من باب الاستقلال التام فيما زعم دعاة تلك المعاهدة حينذاك ..

كان زكى مبارك منذ نشأته نصيرا لحزب مصطفى كامل ومحمد فريد (الحزب الوطنى) الذى جعل رأس مبادئه : لامفاوضة إلا بعد الجلاء ، ولهذا ابتعد عن الشعر لكيلا ينظم نشيدا للعهد الذى جاءت به معاهدة ١٩٣٦ ، تلك المعاهدة التى تمخضت عنها «المفاوضات» ولم تنص بنودها على الجلاء ! ..

وكانت جائزة كل موضوع من الموضوعات التى طرحتها الحكومة فى مباراتها الكبرى ، مائة جنيه ، وهى مبلغ جسيم من المال فى سنة ١٩٣٦ إذ كان الجنيه المصرى أقوى عملة فى «كتلة الاسترلينى»

وكانت هذه الكتلة تهيمن على أسواق المال فى العالم .

ولعل زكى مبارك ـ بصراحته التامة المعهودة ـ هو الكاتب الوحيد الذى قدم بحثه إلى المباراة ، معترفا بأنه لو ظفر بالجائزة لعادت عليه بأجزل النفع فى ضائقته التى ضاق بها ذرعا لطول أخذها بخناقة ، وملازمتها له ملازمة المحب لحبيبه ! ..

وكان من عادة بعض أدباء ذلك العصر أن ينشروا موضوعاتهم أو قصائدهم قبل أن تنظر فيها لجان التحكيم ، وكانت الفترة الممتدة من أول العشرينات إلى آخر الثلاثينات أحفل الفترات بالمباريات الأدبية ، وامتد أثر هذه الفترة إلى ماتلاها من السنين حتى أوائل الخمسينات وكانت لجان التحكيم معروفة بالكفاءة والأمانة فى أغلب الأحوال ، ولكن كبار الأدباء والشعراء كانوا يستنكفون من دخول هذه المباريات إلا إذا ضمنوا نتائجها ، كما حدث عندما تقدم أمير الشعراء أحمد شوقى إلى إحدى مباريات العشرينات بنشيده الوطني الذى بدايته : «بنى مصر مكانكم تهيأ» .. فقد تعهدت لجنة المباريات بفوز النشيد

لكيلا يحجم أمير الشعراء عن دخول المباراة .. وفاز النشيد بطبيعة الحال ..

الا أن الفقراء من كبار الأدباء والشعراء أمثال زكى مبارك ومصطفى صادق الرافعى كانوا يتحاملون على كبريائهم ويدخلون هذه المباريات معرضين انفسهم للوقوف فى صفوف عامة أهل الأدب ، عسى أن يظفروا بشىء من المال يسد خلة فى حياتهم لايسدها أدبهم ولا علمهم ...

ولكن كيف عاش زكى مبارك لايجد كفاية العيش من عمله فى التأليف والصحافة والتدريس بينما استطاع أنداده أن يلتحقوا بطبقة المياسير مع أنه لم يكن يقل عنهم غزارة إنتاج ولا استفاضة شهرة ولا تزودا بالشهادات الجامعية العليا ؟ !..

عاش زكى مبارك قرابة ستين عاما وتوفى قبل إحالته إلى التقاعد بأشهر قلائل سنة ١٩٥٢

وحياته بدأت فى سنتريس من قرى محافظة المنوفية وعرف فى صباه العمل فى الحقل بعد فراغه من دروس « الكتاب » .. وكان والده الشيخ عبد السلام مبارك محبوبا فى القرية مشهودا له

بالصلاح والتقوى مواظبا على واجباته فى الطريقة الصوفية التى ينتسب اليها ..

السير فى طريق التصوف

ومن كُتَّاب القرية انتقل الطفل محمد زكى عبد السلام مبارك إلى القاهرة والتحق بالازهر وهو فوق الخامسة عشرة من عمره وترانيم مجالس الصوفية التى حضرها مع والده ترن فى سمعه وفى خلده وتدعوه إلى مواصلة السير فى طريق التصوف فى القاهرة مقتديا بهذا الشيخ المتصوف أو ذاك من شيوخ الأزهر ..

يقول زكى مبارك :

"فى سنة ١٩١٢ وأنا طالب بالأزهر رغبت فى صحبة الصوفية فأخذت أنتقل من ناد إلى ناد حتى تعرفت إلى رجل فاضل من اساتذة الأزهر كان يومئذ من كبار الصوفية فأخذت عليه العهد وبدأت اقوم بالأوراد على طريقة الشاذلية .. وفى سنة ١٩١٥ رآنى ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى

الطريق فأضاف اسمى إلى قائمة الخلفاء وصار لى فى سنتريس وفى غيرها مريدون وأتباع" .

هكذا صار الطالب الأزهرى زكى مبارك من حلفاء الطريقة الشاذلية وسار فى ركابه المريدون والاتباع .. وعاش متصوفا مخلصا حتى نشب بينه وبين شيخه الكبير خلاف حاد اذ اتهمه الشيخ بالخروج عن تعاليم الطريقة ! ..

ولا ندرى هل أقصاه الشيخ عن حلقات الطريقة ومجالسها أم انصرف هو عنها زاهدا فيها ولكن من الواضح انه مضى عن الطريقة ساخطا عليها وافرغ سخطه فى كتاب شرع يؤلفه منذ ذلك الحين عن "الاخلاق عند الغزالى" ..

وللغزالى عند المتصوفة مقام عظيم أغرى زكى مبارك بأن يجعله هدفا لسهامه فتجنى عليه كل التجنى ولم يراع ان المتصوفة وسائر المتدينين يسمونه "حجة الاسلام" ويبجلونه كل التبجيل فكان ذلك سببا لحملة كثير من الازهريين على زكى مبارك واتهامهم له بالمروق عن سواء السبيل .

أحلام وجهاد مع العلم

انصرف زكى مبارك عن التصوف والصوفية ، وتفرغ لدراسة الادب والشعر فى حلقة العالم الازهرى الاديب الشيخ سيد المرصفى ، الذى بفضله عرف زكى مبارك الادب والشعر ، وقرر ان يكون شاعرا واديبا ، وسلك بالفعل طريق الادباء والشعراء .

يقول زكى مبارك عن شيخه سيد المرصفى : "كان الشيخ خافت الصوت ، فكنت ابكر الى درسه لأقرب منه ، وكنت اكتب كل ما ينطق به ، حتى جمعت من دروسه ثلاثين كراسة ، هى اليوم انفس ما املك من ذكريات الأزهر الشريف ! .. فان كان من بين آلاف القراء قارىء واحد استطاب ما اكتب ، فليذكر ان الفضل فى ذلك يرجع الى تشجيع الشيخ سيد المرصفى طيب الله ثراه" ..

واتسعت احلام زكى مبارك ، وصار حلمه الاكبر ان يصبح مفتيا للديار المصرية ، ولكنه وجد نفسه مسجلا فى ألازهر مع اصحاب المذهب الشافعى ، فنقل نفسه الى المذهب الحنفى ، لان مفتى الديار

المصرية لا يكون الى على المذهب الحنفى ، مذهب الدولة العثمانية والحكومة المصرية ! ..

ولكن زكى مبارك بدأ يتخلى عن حلمه فى مشيخة الافتاء عندما فتحت الجامعة المصرية "الاهلية" ابوابها قبل الحرب العالمية الاولى ، ورأى زكى مبارك زميله الازهرى طه حسين يلتحق بهذه الجامعة ويحصل منها على شهادة اسمها "الليسانس" وقد استغنى بها عن شهادة "العالمية" التى فاته الحصول عليها من الازهر ، ثم رآه يفوز بشهادة اسمها الدكتوراه يهز اسمه برنينه الاسماع والقلوب !

لم يلتحق زكى مبارك بالجامعة الا سنة ١٩١٦ وترك الازهر قبل ان يحصل على "العالمية" وهو يومئذ فى الخامسة والعشرين من عمره ، موزع الفكر والفؤاد بين الصحافة والشعر والادب والجامعة وشهاداتها ذات الاسماء الرنانة .

وحين تقدم زكى مبارك لامتحان الليسانس فى الجامعة اسقطه الدكتور طه حسين ، فتقدم مرة ثانية فاسقطه ايضا .. ثم نجح فى الثالثة واخذ يتم

ابحاثه التى كان قد بدأها منذ سنوات حول "الاخلاق عند الغزالى" ..

وتبدت تباشير ثورة ١٩١٩ فسارع اليها زكى مبارك تحت راية "الحزب الوطنى" .. ثم تحت راية "الوفد المصرى" بزعامة سعد زغلول ، وعرف طريقه الى منبر الازهر ، فكان من خطباء الثورة ، ثم كان من نزلاء المعتقل الذى اقامه البريطانيون للنشطاء من مؤيدى الثورة ..

وفى سنة ١٩٢٤ ظفر بدرجة الدكتوراه من الجامعة عن كتابه فى "الاخلاق عند الغزالى" .

والظاهر ان زكى مبارك كان له مثل اعلى هو "استاذه" الدكتور طه حسين .. وقد رآه يبنى مجده على شهادة الدكتوراه التى نالها من باريس ، فقرر ان ينال من باريس هذه الشهادة ! ..

ترك زكى مبارك زوجته وبنيه فى مصر وسافر الى فرنسا فى مارس سنة ١٩٢٧ وليس فى جيبه الا قليل من المال ، ووعد من صاحب جريدة "البلاغ" ـ عبدالقادر حمزة ـ بان يرسل اليه كل شهر بعض النقود ، لقاء مقالات يبعثها اليه من باريس لتنشر فى الجريدة

مكث زكى مبارك فى باريس خمس سنوات عجاف يناضل فى سبيل "الدكتوراه" التى ناضل فى سبيلها طه حسين من قبل ، الا ان طه حسين كان يتلقى راتبا من الجامعة ، اما زكى مبارك فلا يتلقى إلا ما تجود به جريدة "البلاغ" وهو اقل من القليل فى باريس ، مدينة النور ! ..

ولولا ان زكى مبارك كان يعود الى مصر فى الاجازة الصيفية كل عام ، لما استطاع ان يواصل حربه "المقدسة" فى سبيل الدكتوراه من باريس ..

لقد شقى زكى مبارك فى سبيل هذه الدكتوراه الباريسية ، ولولا صدق عزيمته لفر هاربا من تكاليفها الباهظة ، ومن قسوة البؤس الذى انزلته به ، وقد كنا نحفظ فى صبانا مقطوعة له قالها يخاطب باريس فى تلك المحنة ، وهى من احسن شعره :

ياجنة الخلد كيف يشقى
فى ظلك النازح الغريب
الناس فى لهوهم نشاوى
ودمعه دافق حبيب

يقتات اشجانه وحيدا
فلا صديق ولا قريب
اقصى امانيه حين يُمسى
ان يهجع الخفق والوجيب

هذه الابيات حفظناها من "مجلة الهلال" التى نشرتها بعد عودة زكى مبارك ببضع سنوات ، وكنا نتناقلها اعجابا برقتها وشجنها ! ..

كانت دكتوراه باريس هى الدكتوراه الثانية فى حقيبة زكى مبارك بعد الدكتوراه الاولى التى حازها من الجامعة المصرية القديمة ..

ولكن زكى مبارك لم يكف عن طلب شهادات الدكتوراه بعد عودته من باريس فى مارس سنة ١٩٣١ ظافرا بدكتوراه السربون ..

وشرع من فوره يعد رسالة الدكتوراه الثالثة ، ليأخذها فى هذه المرة من الجامعة المصرية الجديدة التى شيدت مبانيها فى الجيزة ..

وكما كانت رسالته ايام الجامعة القديمة عن التصوف او الاخلاق عند الغزالى ، كانت رسالته الثانية عن التصوف ايضا ، واهتبلها فرصة لتعديل ارائه القديمة عن الغزالى ، تلك الآراء التى اثارت عليه المتصوفة ومريديهم

الدكاترة زكى مبارك

وفى سنة ١٩٣٧ عاد زكى مبارك الى الجامعة طالب علم وباحثا مجتهدا يسأل الاساتذة ان يمنحوه الدكتوراه ، فلم يبخلوا عليه بها ، واجتمعت فى حقيبته ثلاث من هذه "الدكتوراه" وحق له عندئذ ان يسمى نفسه "الدكاتره زكى مبارك" .. فقد كان وحيد عصره بين اقرانه فيما يحمل من اوراق هذه الشهادة الساحرة !..

كيف جرت المقادير بعد ذلك بهذا الرجل الذى جعل شعاره ان يطلب العلم من المهد الى اللحد ، وان يحتفظ بروح "التلميذ" الخالد ، وان بلغ درجة الاستاذية الكبرى ؟! ..

كان زكى مبارك وعارفو فضله يأملون ان تفتح له الجامعة المصرية ابوابها مرحبة به استاذا بين اساتذتها ، ولكن الجامعة لم تطق صبرا على هذا الدكتور العنيف الذى ينطبق عليه قول الحكيم العربى القديم "ان قول الحق لم يدع لى صديقا"

فهو دائم التحفز للمعارك الادبية ، ومقالاته فى

"البلاغ" وغيرها من الصحف ، لا تحابى صديقا ، ولا تخشى عدوا ، كأنما هو سيف مُصْلَتٌ على الرقاب بلا حساب ! ..

ووجد زكى مبارك نفسه متوحدا يحارب من اجل مكان له تحت الشمس ، ولكن اصدقاءه واعداءه جميعا يتهمونه بالعنف وبداوة الطبع ، ولا يمدون يدا لمناصرته فيما يطلب من حقه .. فرد عليهم يقول : "ان بدواة الطبع التى كثر الكلام فى ذمها وتجريحها لم تكن من المثالب الا فى كلام الشعوبية ، وهم قوم ارادوا الغض من الشمائل العربية ، فكيف ينكر على رجل مثلى ان يظل بدوى الطبع فى زمن توارت فيه الصراحة وكثر تنميق الأحاديث ؟!"

ودخل زكى مبارك معارك ادبية ملتهبة مع جميع ادباء عصره المعدودين ، واولهم الدكتور طه حسين الذى اعتبره زكى مبارك عدوه الاكبر لانه حارب حقه فى الجامعة واخرجه منها وطارده حتى فى عمله المتواضع بالتدريس فى المعاهد الفرنسية بمصر ، وتستطيع ان تضم الى اسم طه

حسين اسماء مشاهير الادباء جميعا فى عصر زكى مبارك ، فليس فيهم من لم يهجم عليه زكى مبارك اعنف هجوم ، ومن بين هؤلاء العقاد والمازنى ومصطفى صادق الرافعى واحمد زكى باشا واحمد امين وسلامة موسى وعبدالعزيز البشرى وغيرهم ..

كانت مشكلة زكى مبارك ان الجامعة ، ووزارة المعارف قد اهدرتا حقه فى كرسى الاستاذية بالجامعة ، واضطره ذلك الى الالتحاق بوظائف فى وزارة المعارف لا تناسب مكانته العلمية التى تعززها ثلاث شهادات للدكتوراه من الجامعة المصرية والسربون .

وفى هذه الظروف المضطربة ، جاءت المباراة الادبية الكبرى فتقدم اليها املا فى جائزتها ، وطبع على نفقته كتابه هذا قبل ان تنظر فيه لجنة التحكيم ، وانتظر ان تقدره هذه اللجنة حق قدره بعد ان يئس من تقدير الجامعة والحكومة وتقدير معاصريه من كبار الادباء ..

وكانت نتيجة التحكيم مفاجأة له ، فان اللجنة قسمت الجائزة بينه وبين ادباء آخرين ، فلم ينل

من المائة جنيه ما يساوى نفقات طباعة كتابه ، وهكذا خسر هذه المعركة ايضا !

ولكن كتبه كانت تلقى رواجا عند القراء ، فلعله استرد من "توزيع" هذا الكتاب ما غطى نفقاته بعد تلك الخسارة .. وقد كان من عادته ان يطبع كتبه على نفقته ، ولا ندرى كيف استطاع ان يطبع اكثر من اربعين كتابا بهذه الطريقة ، من بينها كتبه المشهورة "عبقرية الشريف الرضى" و "ليلى المريضة فى العراق" .. و"التصوف الاسلامى" .. و"النثر الفنى" .. و"مدامع العشاق" .. و"الاسمار والاحاديث" .. و"حب ابن ابى ربيعة" ، وغيرها ..

وفى سنة ١٩٣٨ سافر زكى مبارك الى بغداد ليعمل بالتدريس في دار المعلمين العليا هناك ، وترك وظيفته في القاهرة غير آسف عليها فقد كان يعمل فيها بعقد مؤقت ، وامضى فى بغداد سنة واحدة كانت خيرا وبركة عليه وعلى الادب ، ولكنه حين عاد الى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية وجد نفسه ينغمس من جديد فى معركته الطاحنة التى فرضها عليه الناس او فرضتها عليه الايام

صرخات بلا مجيب .

ومرة اخرى اخذ يتطلع الى حقه السليب فى الجامعة ، ويثور على وظيفته المؤقتة فى تفتيش المدارس الفرنسية بمصر .. وكانت صراحته تقطع رزقه ـ على حد قوله ـ ولم ينتفع بشىء من نضاله المستميت ، ولبث منذ عودته من بغداد الى يوم وفاته يرسل صرخاته فى واد سحيق بلا سميع ولا مجيب ! ..

وتملك الاسى والخوف من الحياة هذا الرجل الذى كان لا يأسى على شىء ولا يخاف من شىء ، وصار كل شىء عنده ككل شىء ، وصفرت كفاه من الثمرات التى ظن انه سيظفر بها حين كان يملؤه الامل الكبير فى شبابه وفى ايام نضاله بين سنتريس والقاهرة وباريس وبغداد ..

وفى السنوات الثلاث الاخيرة من حياته ـ رحمه الله ـ كنت اراه ليلا او نهارا جالسا الى مائدة مستديرة ضئيلة فى مقهى بميدان التوفيقية على مقربة من نزل "بنسيون" كنت اقيم فيه حينذاك بشارع سليمان باشا بالقاهرة ..

كان الشراب سلواه فى ذلك المأزق الضنك

الذى وجد نفسه فيه ، وقد قارب سن الستين ، فلزم مقهاه او مشربه لا يريم ، كانه حصنه الحصين ! ..

ولما توفى فى ٢٣ يناير ١٩٥٢ نشرت الصحف نبأ وفاته فى اسطر قلائل ، واندلع حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فابتلع النبأ ، وانقضى الحديث عن زكى مبارك قبل ان يبدأ ، ولقى الرجل العظيم فى مماته من سوء الحظ ما لقى فى حياته !

وبعد ....

فليست هذه الا ومضة خاطفة من الضوء الوهاج الذى كان يحيط باسم زكى مبارك فى ايام مجده وسعده وليس كتاب "اللغة والدين والعادات" ـ على اهميته وطلاوته ـ الا نفحة واحدة من نفحاته التى تستحق أن تملأ الدنيا وتشغل الناس ، لو انصفها الزمان ، ولم يتنكر لها كما تنكر لصاحبها طوال حياته ..

وليس القارىء بحاجة الى دليل يقوده بين سطور كتاب "اللغة والدين والعادات" فانه من البساطة بحيث يتنقل فيه سالكه بغير دليل ، ولكنا ـ فى هذه المقدمة ـ انما اردنا ان نقول كلمات نحيى بها ذكرى هذا الكاتب الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فهذا بحث أدرت معانيه فى ذهنى أسبوعين ، ثم كتبته فى سهرتين .. وأنا أقدِّمه الى الجمهور قبل أن أقدِّمه الى لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، أقدِّمه سمحاً سهلاً كما فاض به الطبع بلا توشية ولا تنميق .

ولم يكن كل همى حين أنشأته أن أظفر بالجائزة الأولى وهى مرصعة بمائة دينار تعود على مثلى بأجزل النفع ـ وانما كان أكبر همى أن تصل بعض آرائى الى آذان قومى ، وهذا مغنم ليس بالقليل .

وإنى أعتذر عما اصطنعت من الايجاز ، فقد ضاق الوقت ، وصرفتنى الشواغل عما كنت أريد من الاطناب وجهد المقل غير قليل .

زكى مبارك

مصر الجديدة فى : ١٢ المحرم سنة ١٣٥٥ ـ ٤ ابريل سنة ١٩٣٦

اللغة والدين والعادات

باعتبارها من مقومات الاستقلال

■ ١ ■

الدين واللغة والعادات من الظواهر التى يتصل بعضها ببعض أشد اتصال ، ومن المؤكد أن اللغة تخضع فى بعض ألوانها للدين والعادات ، وقد يكون فى صورها القديمة ما يؤثر فى الدين والتقاليد .. وهذه الظواهر الثلاثة تبدو مختلفة

بعض الاختلاف ، ولكنها عند التأمل ترجع الى أصل واحد هو التعبير عن الخلائق الأدبية : فاللغة مظهر من مظاهر الأناقة والدقة فى الافصاح ، والدين صورة العقيدة التى يحيا بها الناس ، والعادات مظاهر لما تأصل من كريم الشمائل والخلال .

· فالانسان المهذب تقوم حياته الأدبية على لسان فصيح ودين حق ، وعادات كريمة تصل بينه وبين الأقربين من إخوانه فى الوطنية ، وقد تسمو فتصل بينه وبين الأبعدين من اخوانه فى الانسانية .

■ ٢ ■

ونريد فى هذا البحث أن نخص كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة بشىء من البيان فنقول :

اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ، فالذى يعبر بلغته يشعر بالقوة وتنطبع نفسه على حب الكرامة والاستقلال ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً مانشعر به حين نضطر ونحن فى بلادنا الى التفاهم مع بعض الأجانب بغير العربية ، فاننا حين ذاك نشعر بالتخلف ، ونوقن بأن سلطاننا فى العالم سلطان ضعيف ، فقد يجىء الأجنبى الى مصر ، ثم تمضى عليه الشهور والأعوام بدون أن تقهره الظروف على تعلم العربية ، ويكون معنى ذلك أن مصر ليست ملكاً خالصاً للمصريين ، فان الرجل لايستطيع أن يتخذ باريس أو لندن أو برلين مقاما بدون أن يتعلم الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ، ولكنه يستطيع أن يتخذ القاهرة مقاماً

بدون أن يتعلم العربية ، لأن فى القاهرة عصبيات أجنبية لها مدارس ومكاتب وجرائد ومسارح ومنتديات ، ويستطيع الفرنسى أو الأنجليزى أن يعيش فيها سنين عددا وهو لايتكلم غير الفرنسية أو الانجليزية ، وهو يستطيع بقوته الاستقلالية أن يقهر المصريين على مخاطبته بلغته الأصلية ، ثم لايستطيعون هم أن يقهروه على مخاطبتهم باللغة العربية .

أليس هذا من أنصع الدلائل على أن اللغة فى ذاتها شخصية استقلالية ؟

لقد كنت آسى كلما تذكرت تقصيرى فى تعلم

الانجليزية ، ثم مرت ظروف حمدت فيها ذلك الجهل ، لأنه على قبحه كان عنواناً على الشخصية الاستقلالية .. وتفصيل ذلك أنى أقمت عدداً من السنين فى باريس ، وكنت ألقى فيها ناساً من النمسويين والبولونيين والهولنديين والألمان فكان يتفق أحياناً أن يجرى ذكر اللغة الانجليزية فكنت أعلن أنى أجهلها كل الجهل ، فكانوا يقولون : وكيف يصح ذلك ومصر فى قبضة الانجليز ؟ فكنت أجيب : إنكم واهمون ، إن مصر ليست فى قبضة الانجليز وانما هى ملك لأبنائها الصناديد ،

واللغة الانجليزية فى مصـر لغة أجنبية يرغب فيها من يشاء ، وآية ذلك أنى أحمل أكبر الألقاب العلمية ، بدون أن أتعلم الانجليزية .

■ ٣ ■

ومن أمراض الشخصية الاستقلالية فى مصر مانشهده فى المصالح والدواوين من كتابة أسماء الغرف والحجرات بلغة دخيلة تزاحم اللغة القومية بلا تحرج ولا استحياء ، فان تلك الكلمات تشعرنا دائماً بأن لنا فى الوطن شركاء ، وأن لغتنا لاتملك السيطرة والاستقلال ، وقد اتفق أن رأيت فى بعض قطارات فرنسا كلمات انجليزية بجانب الكلمات الفرنسية فدهشت ، ثم سألت عن السر فى ذلك فعرفت أنه لم يقع تلطفا مع الانجليز ، وانما وقع تألفاً للسائحين من الأمريكان ، وهو لم يقع إلا فى القطارات التى تسيرها الشركات ، أما قطارات الدولة فهى كمصالح الدولة لاتكتب فيها كلمة أجنبية على الاطلاق .

■ ٤ ■

قد يقال : وأين نحن من فرنسا ؟ ونجيب بأن فكرة الاستقلال خليقة بأن توحى إلينا التشبه بكرام المستقلين ، والذى عرض هذا الموضوع للمباراة لم ينس أن يشير إلى أن للكاتب « مطلق الحرية فيما يبدى من آراء ومقترحات » وأخشى أن أخون الواجب إن قصرت فى تذكير الحكومة بواجبها فى الاكتفاء بالكلمات العربية فى جميع المصالح والدواوين ، ولست أزهد فى إرشاد من يفد على دور الحكومة من الأجانب فأضن عليهم ببعض مايعرفون من الكلمات ، لا ، وإنما هى مسألة قومية لايفرط فيها إلا من يستهين بما اصطلح عليه الناس من شارات الاستقلال .

ولنفرض أننا نكتب أسماء الغرف والحجرات بكلمات أجنبية لنرشد الأجانب ، فكيف يجوز أن نفترض أن الأجانب لايكونون إلا من الانجليز ؟ إن

فى الدنيا أمماً كثيرة شرقية وغربية ، ولمصر مع الشرق والغرب صلات فكيف صح عندنا أن الأنجليز هم وحدهم الجاهلون باللغة العربية ، وأنهم الخليقون بالعطف والاشفاق ؟

ومن المحزن أن هذه البدعة السيئة انتشرت فى جميع المدن المصرية ، حتى حىّ الأزهر الشريف ، فأمام مسجد الحسين بائع (فول مدمس) زين واجهة المطعم بكلمات انجليزية .

أتكون الصراحة التى دعانا إليها رئيس الحكومة فرصة لتذكير أولئك الغافلين بأنهم يجرحون القومية ويؤذون الاستقلال .

قلتم إن التفضيل فى المباراة سيكون « للرسالة العملية النتائج » فأسرعوا غير مأمورين بدعوة الموظفين والجمهور إلى احترام اللغة العربية احتراماً يجعلها بلا مزاحم ولا شريك فى المصالح والمتاجر والدواوين ، ابدأوا باحترام اللغة فى جميع دور الحكومة وسترون كيف يتبعكم سائر الناس .

■ ■ ■

اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول صاحب الدولة رئيس الوزراء ..

إذن ما رأيكم فى لغة التعليم ؟

إن التعليم عند المستقلين يجب أن يكون باللغة القومية لغة الآباء والأجداد ، ومن العسير أن نجد فى الدنيا أمة مستقلة تصطنع فى التعليم لغة أجنبية .

أما مصـــر العزيزة فقد قسمت إلى مناطق ، منطقة ضعيفة تسود فيها اللغة العربية وهى المدارس الابتدائية والثانوية ، ومنطقة قوية تسود فيها اللغة الفرنسية وهى كلية الآداب وكلية الحقوق ، ومنطقة أقوى تسود فيهـا اللغة الانجليزية وهى كليات الطب والهندسة والعلوم ..

ومناصب التعليم فى المدارس العالية أكثرها

للاجانب وهى بلية لاتصبر عليها أمة تسمو إلى كرامة الاستقلال .

إن الأمم الحرة لا تعطى مناصب التعليم غير أبنائها ، واللغات الأجنبية ذاتها لايدرِّسها الأجانب ، وإنما يُدَرِّسها الوطنيون ، ففى فرنسا - مثلا - أساتذة اللغات الأجنبية كلهم فرنسيون .. ومن أجل هذا تملك فرنسا طائفة كبيرة من النوابغ فى اللغات الأجنبية ، أما فى مصر فيندر أن تجد من يتفوق فى لغة أجنبية ، لأننا نتعلم اللغات لغاية محدودة هى الاستفادة من المؤلفات ، ولو كان لنا مستقبل فى تعليم اللغات الأجنبية لتبدل الحال غير الحال ، وشعر شبابنا بأن لهم مصالِح يخلقها التفوق فى اللغات ، وكان ذلك حجرا فى بناء الاستقلال .

لا أريد أن يجرفنى الاستطراد ، فلأرجع مسرعا إلى ماكنت فيه ، وأنا أقرر أن لغة التعليم فى كليات الجامعة المصرية يجب أن تكون العربية ، وأقول بصراحة : إن اللغة الانجليزية لم تسُد فى كليات الطب والهندسة والعلوم لسبب معقول ، إنهم يزعمون أن اللغة العربية تعوزها المصطلحات العلمية ، وهذا وهم ، أو هو عجز

يُسترُ بهذا الوهم المصنوع ، فالمصطلحات العلمية لم تكن مما تفردت به الانجليزية أو الفرنسية ، وإنما هى ألفاظ نحتت نحتاً من اليونانية واللاتينية ، وفى مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية .

■ ٦ ■

وتعليم العلوم بلغة البلاد يخلق فينا قوى جديدة ، ويدفعنا إلى الترجمة والتأليف ، ويرفع عنا إصر الكسل المخجل الذى يتمتع به أساتذة الكليات ، وهو كذلك يرفع عنا هذه الوصمة البشعة ، وصمة الفقر فى المكتبات ، ففى الممالك المستقلة يرى الانسان فى الأحياء الجامعية مكتبة خاصة بالطب ، ومكتبة خاصة بالعلوم ، ومكتبة خاصة بالفلسفة ، ومكتبة خاصة بالطيران ، وهكذا دواليك ، أما فى مصـر فلايجرؤ أحد من الناشرين على إنشاء مكتبة خاصة بعلم من العلوم ، وإنما تتجمع العلوم والآداب والفنون والحكايات فى مكتبة واحدة تلتقى فيها قصة القط والفأر بكتاب أرسطو فى الأخلاق .

إن فقر مصـر فى الترجمة والتأليف يقع وزره على رجال الجامعة المصـرية ، فلو سلكوا مسلك

الحزم والجد وتذكروا أنهم يعيشون فى بلد كان وطن المعارف والعلوم لأقبلوا على لغتهم فاصطفوها وجعلوها لغة التعليم ، وأمدوها بكل طارف وتليد ، وتسامت همتهم إلى جعلها لغة الشرق فعاشوا بفضلها سادة أعزاء .

وفى مقدور سعادة مدير الجامعة أن يشير بهذه التجربة فى حزم وجد ، وما أظنه يخشى الاخفاق ، لأن اللغة العربية لها ماض مجيد فى الحياة العلمية والطبية ، ومن السهل رجعها إلى مجدها القديم ، ونحن لاتعجزنا الأصول وإنما تعجزنا الهمم العالية التى تخلق الممالك والشعوب ، وليس من الكثير أن نشقى عشر سنين فى سبيل تجربة شريفة نحفظ بها ذكرانا نقية بيضاء على وجه التاريخ .

أقدم ، يامدير الجامعة المصرية ، على هذه التجربة ، لتحوِّل أساتذه الكليات إلى طلاب جادين يشعرون بالعزة ، كلما تذكروا أنهم يحملون الأحجار لوضع أساس الاستقلال .

■ ٧ ■

إن مصـــر حين تعلم العلوم باللغة العربية ستفتح أسواقا جديدة هى أشرف الأسواق ، وحسبكم أن تتذكروا أن مصـــر ستصبح بحق زعيمة الشرق ، وستكون مؤلفاتها عمدة الباحثين فى المشرقين ، فيتغنى بذكرها أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق .

أتحسبون أن من القليل أن يكون فى الخارج مكاتب خاصة بالثقافة المصـرية ؟

إن من مجد فرنسا وانجلترا أن يرى الانسان فى مثل القاهرة مكاتب فرنسية وانجليزية ، وتلك من أظهر علائم السيطرة الأدبية عند من يتمتعون بنعمة الاستقلال ..

إن اللغة العربية من أكبر لغات الشرق ، ومصـر فى هذا الزمان على رأس الحركة العلمية فى الشرق ، ولاينقصها إلا أن تجعل العربية لغة

التعليم فى جميع المعاهد ، فتقهر الأساتذة على الترجمة والتأليف ، وتسوقهم سوقا إلى اجتذاب الأمم الشرقية باسم الأدب الحق ، أدب الفكرة والمنطق والفن الجميل .

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا معجم واحد يسجل تطور اللغة في العصر الحديث ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا مكتبة طبية أو علمية باللغة العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وآثار مصر نفسها لم ينشر عنها كتاب وافٍ باللغة العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا كتاب فى القانون خلت صفحة من صفحاته من سطرين أو ثلاثة بلغةأجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال ولايستطيع رجل من علمائنا أن يكتفى فى أى بحث بالمصادر العربية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وليس عندنا وزير واحد خلت بطاقته من الكلمات الأجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال والمطبوعات الأجنبية هى أكبر محصول فى دار الكتب ومكتبة الجامعة المصـــرية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وفى القاهرة والاسكندرية مناطق لاتباع فيها غير الجرائد الأجنبية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال وفى الدواوين أقلام لاتدون ملفاتها بغير الانجليزية ؟

كيف ندعى شرف الاستقلال ولغتنا منسية فى معاهدنا ومدارسنا ومكاتبنا ؟ وأخشى أن أقول انها منسية فى دور الوزراء والأمراء وأكثر المتحذلقين من أبناء الزمان ؟

إن مدير الجامعة مسئول أمام الوطن وأمام التاريخ عن هذا البلاء ، وفى يده أن يكشف هذه الغمة وأن يجعل لغة البلاد لغة الدرس والتأليف فى جميع الكليات ، نعم يستطيع الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا أن يجمع أبناءه المخلصين من أساتذة الجامعة المصرية ويفرض عليهم اصطناع اللغة العربية فى جميع المواد ، وعلى الضعيف أو المتخلف أن يستقيل ، فان مصر تعانى أزمة تقض المضاجع لأنها مستقلة رسمياً ، ولكنها محرومة من أشرف مظاهر الاستقلال .

أريد أن أعرف ما الذى يقهرنا على هذه التبعية العلمية للانجليز والفرنسيس ؟

ان اللغة الفرنسية ليس لها إلا سلطان ضئيل فى كلية الحقوق وكلية الآداب ، أما اللغة الانجليزية فتطغى وتستطيل فى كليات الطب والهندسة والعلوم ، وما أذكر أن هذا الطغيان كان من التحفظات المشهورة فى التاريخ .

لنا عذر واحد : هو الكسل المعسول الذى ينعم به الخامدون .

ولكن هل يعجز مدير الجامعة عن استئصال هذا الداء ؟

إن الوطن ينتظر منه هذه اللفتة : لفتة الوالد الحازم الذى يخشى على بنيه من انهزام العزائم وانحلال الطباع .

- ٨ -

ان اللغة من مقومات الاستقلال ؟

كذلك يقول دولة رئيس الوزراء ..

وهذا والله صحيح ، ألم تروا كيف يحرص الغاصبون على نشر لغاتهم ؟ إن فرنسا فى مستعمراتها تنشر اللغة الفرنسية ، وانجلترا فى مستعمراتها تنشر اللغة الانجليزية وايطاليا فى مستعمراتها تنشر اللغة الايطالية .

فاذا كان الغاصبون يرون نشر لغاتهم من مؤيدات الاحتلال ، أفلا يرى الوطنيون نشر لغتهم من مؤيدات الاستقلال ؟

رحمة الله على ألفونس دوديه ، فما تذكرت كلمته عن « الدرس الأخير » فى (الالزاس) إلّا ثارت نفسى ، وتجدد إيمانى بأن حفظ اللغة هو الأساس فى حفظ الاستقلال ، ونحن خليقون بأن نأخذ الدرس من غاصبينا ، لأنهم أساتذة فى علم

النفس ، واليهم المرجع فى تصريف الشعوب .

اللغة كما قلت لكم شخصية استقلالية ، وهى وحدها من أهم مظاهر الاستقلال ، فعضوا عليها بالنواجذ إن كنتم تعقلون .

■ ٩ ■

وما أحب أن تضيع هذه الفرصة بدون أن أذكر سعادة مدير الجامعة المصرية بمسألة خطيرة تمس الاستقلال وتلك هى مسألة الرسائل التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية .

ان الرسائل التي تقدم لامتحان الدبلوم والدكتوراه يجب دائماً أن تكون باللغة القومية ، ففى جامعة باريس مثلا لاتقبل الرسالة الأساسية بغير اللغة الفرنسية ، ولو كانت فى موضوع يتصل باحدى اللغات الأجنبية .

أما فى مصر فالأمر بالعكس ، تقدم الرسالة الى الجامعة المصرية بأى لغة أجنبية بدون اعتراض ، ولو كانت فى صميم الآداب العربية ، أو الشريعة الاسلامية ، وهى حين تقدم بالعربية يجب أن تكون مصحوبة بخلاصة فرنسية أو

انجليزية ، ولو كان أعضاء الامتحان جميعاً مصريين .

وقد قاومت هذه البدعة مرات كثيرة فى جريدة البلاغ ، لأن كلية الحقوق جرت فى تقاليد الامتحانات العالية على إيثار تقديم الرسائل بلغة أجنبية ، واتفق لها مرة أن قبلت رسالة كتبت باللغة الفرنسية عن الدِّية فى الشريعة الاسلامية .

تذكروا أنكم دعوتمونا الى تقديم ماتشاء من الآراء والمقترحات ، فان كنتم جادين فيما دعوتم فنحن جادون فيما نقترح ، ونحن نرى تقديم الرسائل الى الجامعة بلغات أجنبية ينافى الحرص على مقومات الاستقلال .

قد تقولون انكم تريدون التعرف الى الجامعات الأجنبية ونحن نقول إن لهذا التعرف وسائل كثيرة ، فاختاروا منها ماشئتم ، إلا هذه الوسيلة التى تعلن تبعيتكم لثقافة الانجليز أو الفرنسيس .

أنا أدعو الى تعديل هذه الفقرة من لوائح الجامعة المصرية ، وأوصى بجعل اللغة العربية لغة الرسائل العلمية والأدبية والتشريعية التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية .

أترون فى هذا الاقتراح شيئا من الشطط ؟

إن سعادة مدير الجامعة يعرف أنى على حق ، والى رأيه الموفق أكل تحقيق هذا الاقتراح النبيل .

■ ١٠ ■

ولكن ماهى اللغة التى تعد من مقومات الاستقلال ؟ أهى اللغة المخدرة التى لاترى الشمس ولايعرفها غير عشاقها المعدودين من كبار الكتاب ؟ آهى تلك اللغة الهيوب التى تتعثر فى كل حرف ، وتسقط فى كل فقرة ، ويختلف من حولها العلماء فى الصباح والمساء !

اننا نريد « لغة من لغات المدنية » نريد لغة يفهمها الفلاح والملاح والنجار والبناء ، نريد لغة سخية تسعد أبناءها جميعاً بغير حساب ، نريد لغة تجمع بين التواضع والجبروت ، يرى فيها العوام مايشاءون من البساطة والجمال ويرى فيها الخواص مايريدون من السمو والتحليق ، نريد لغة مبذولة على نحو مايبذل الضوء والهواء ، يأخذ منها كل إنسان مايناسب عينيه ورئتيه ، وأنا بهذا أدعو الى الديمقراطية اللغوية ، أدعو الى تيسير

اللغة تيسيراً يقربها من جميع القارئين والسامعين ، أدعو الى القصد فى احترام الالفاظ القاموسية ، وأشير باحترام ما اصطلح عليه الناس من الالفاظ فى مختلف الفنون .

ولن تكون اللغة العربية (لُغَةً مَدَنِيةٍ) إلا يوم تصبح أداة التفاهم بين جميع الطبقات ،ويوم تحترم جميع الالفاظ الاصطلاحية ، فترفع تلك الهيبة السخيفة التى يعانيها كل تلميذ يُكلَّفُ موضوع إنشاء . .

وأنا أقترح أن يتصل المؤلفون بالقراء على نحو مايتصل الأساتذة بالطلاب ، فإن ذلك ينفع أجزل النفع فى تعريف المؤلفين بما يأخذون ومايدعون ، فقد رأيت العجب فى حياة التدريس ، وعلمت علم اليقين أن التلاميذ يتهيبون اللغة ويذهبون ضحية الحذلقة التى يلمسون آثارها فيما يقرأون ومايسمعون .

لقد كنت أجد من بين تلاميذى من يدنو منى فى درس الانشاء ويهمس : يا استاذ ، هل يصح أن أقول « مشيت وحدى »

نعم ، يابنى ، تستطيع أن تمشى وحدك بلا

معين ، وكنت أجد من يقول : يا أستاذ : هل (خرجت) كلمة فصيحة ؟

نريد أن يقبل الأساتذة والمؤلفون على التلاميذ والقراء فيفهموهم أن الافصاح أيسر ممايظنون ، نريد أن يفهم الجمهور أن الافصاح ليس وقفاً على المتحذلقين من أساتذة الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب .

وأنا مع هذا أومن بأن فى كل لغة نوعاً من الاريستوقراطية الادبية ، ولكنى أنكر أن تكون لغتنا فى كل مناحيها لغة أريستوقراطية لايفهمها حق الفهم غير الخواص .

اذهبوا ان شئتم الى مدينة مثل باريس وانظروا كيف تنتشر على الجماهير بعض الفقرات من خطب الوزراء ، رحمة الله على تلك الليالى حين كنت أنظر أقوال هريو ودلادييه منشورة بأحرف من نور فى أكثر الميادين ، وهى فى بساطة تذكر بتعابير الأطفال .

اقرأوا إن شئتم مؤلفات أناتول فرانس : ذلك الكاتب الفحل الذى حول الفرنسية الى أحاديث حلوة عذبة لايدق معناها على أحد من سواد الناس .

إن « البيان » الذى سمعتم عنه لايعرفه الا الأقلون من كتاب هذا الزمان ، وإلا فأين الكاتب الذى استطاع أن يصل بقلمه اللعوب الى أفئدة الجماهير من أهل الريف ؟

وعلى من يقع وزر هذه النكبة الوطنية ؟

يقع وزرها على الأساتذة والمؤلفين ، فهم الذين ملأوا أذهان الناس بالوسوسة اللغوية ، وحرموهم نعمة الفهم الصحيح .

نحن نريد لغة تشبه لغة القوانين والمعاهدات ، نريد لغة محددة الألفاظ واضحة المعانى ، نريد لغة موحدة يخاطب بها جميع الناس بلاتردد ولاتهيب ، وهذه اللغة المنتظرة يجهد فى خلقها كتاب الصحف اليومية الذين عرفوا بالتجربة أن لهم « زبائن » فى جميع البيئات .

■ ١١ ■

ويتصل بهذا الغرض إصلاح الرسم ، وأنا أدعو إلى التفكير فى اختراع حروف جديدة مشكولة ، فان الرسم الذى نكتب به ناقص أبشع النقص ، ولن نصل إلى تحرير اللغة من اللبس إلا يوم نطمئن إلى أن الجماهير المختلفة تنطق الكلمات على نمط واحد ، فقد اتفق لى مرات كثيرة أن أعدل عن كلمة إلى أخرى خوفا من اللبس الذى يوجبه فقد الشكل ، ولو كنت أجد حروفا مشكولة فى مثل مطبعة البلاغ لوصلت فى الافصاح إلى ما أريد .

والذى أعانيه من هذا الجهد يعانيه جميع الكتاب .. والمهم فى هذه المسألة هو إيجاد حروف مشكولة مع القصد فى صناديق الحروف ، فان الشكل ليس بمستحيل ولكنه غير مستطاع فى الجرائد بسبب تعدد الصناديق وازدياد نفقات

الجمع ، وتستطيع الحكومة أن تقيم (مباراة خطية) عسانا نجد من يخترع لنا حروفًا مشكولة لايزداد بها عدد الصناديق .

ولتوضيح هذه المسألة أقول :

إن لحرف الفاء مثلا أربع صور هى : « ف ، فـ ، ـفـ ، ـف »

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتى عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، وذلك عبء ثقيل .

وأنا بكل جرأة أدعوكم إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له وضع واحد فى أول الكلمة وفي الوسط وفى الطرف ، ثم يصب من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مؤقتا عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يبدو غريباً لأول وهلة لأنه يذهب بشىء من جمال الخط العربى ، ولكن جمال الخط القديم لن يساوى مانظفر به من الدقة والتحديد فى الخط الجديد .

قد تقولون : إن هذا الاقتراح سيوجب أيضاً زيادة الصناديق ، وأجيب بأنها زيادة قليلة

بالقياس إلى الزيادة المخوفه التى يرهقنا بها اصطناع الشكل الكامل فى الخط القديم .

على أنه لامفر من التفكير فى إصلاح الرسم ، لأن البدعة التركية فى اصطناع الحروف اللاتينية ستلاحقنا بلاريب ، فان لم نتدارك الأمر منذ اليوم فسيكون لشبان الجيل المقبل آراء فى استحسان ماصنع الأتراك .

فان لم تفعلوا - وأرجو أن تفعلوا - فانى أخشى أن يكون مصير الخط العربى مصير أتعس السمكات الثلاث !

■ ١٢ ■

ولكن كيف السبيل إلى تقريب اللغة العربية من قلوب الناس ؟

إن اللغة العربية لايعرفها أهلها ، لأن المؤلفات الحديثة خالية من الجاذبية فى أكثر الأحوال ، والمؤلفات القديمة مهجورة لا أنصار لها ولا أشياع ، وآية ذلك أن مكتبة الأزهر يندر أن يفد إليها أحد من المطالعين ، ومكتبة زكى باشا لم تجد من يقرأها فى قبة الغورى غير جماعة الفيران !!

والناشرون فى القاهرة لاتعيش مكتباتهم إلا بفضل زبائنهم فى مختلف الأقطار العربية .. أما الاسكندرية فأمرها عجب ، ومن كان يظن أن تلك المدينة العظيمة ليس فيها مكتبة واحدة مصرية تضارع بعض مافيها من المكتبات الأجنبية ؟

وكذلك يقال فى بورسعيد ، وأسيوط ، وأسوان ..

وخلاصة القول أن اللغة العربية ، لغة التأليف ، ليس لها فى مصر قراء ، وهذا عيب يمس كرامة الاستقلال .

إن الشاب الفرنسي يقرأ فى كل سنة نحو ستين كتاباً ، فكم كتاباً يقرأ الشاب المصرى ؟ اسألوا أنفسكم عما تذكرون من المؤلفات الحديثة أو القديمة التى توصون بقراءتها من يستفتيكم من الشبان .. لقد قضيت فى مهنة التعليم نحو عشرين سنة واختبرت ألوفاً من التلاميذ فى المدارس المصرية والأمريكية والفرنسية ، وكنت أحض الطلبة على القراءة والاطلاع ، وكان الطلبة يسألون : ماذا نقرأ ؟ وأقسم صادقاً أنى لم أوفق مرة واحدة إلى الجواب ، لأنى لا أجد ما أوصى بقراءته غير عدد يسير جداً من المصنفات لايفتن ولايشوق .

إن التأليف فى مصر مشلول بالرغم من طنطنة المؤلفين ، والأمة التى تعجز عن تثقيف أبنائها لاتعرف مقومات الاستقلال .

ينبغى أن يكون فى مصر مؤلفات لكل جمهور ،

وفى مصــر نحو عشرة جماهير مختلفة المشارب والأذواق ، فما الذى صنع كبار المؤلفين لتغذية تلك المشارب والأذواق ؟

على أن من التعسف أن نلقى اللوم كله على المؤلفين ، فهذه الجماهير مسئولة أيضاً عن كساد التآليف ، إن هذه الجماهير لاتعرف المكتبات العمومية أو الخصوصية ، وأنت فى الأغلب تقول فى سبيل التعريف : إن المكان الفلانى قريب من المحافظة ، قبل أن تقول : إنه قريب من دار الكتب المصــرية .

فما السبيل الى تشجيع التأليف وخلق ذوق القراءة والأطلاع ؟

لنبدأ بالموظفين الذين ننفق عليهم نصف الايراد ، إن جمهور الموظفين لايقرأ ، ولايهمه أن يقرأ ، مع أنهم يمثلون الجمهور النظيف ، فان كنتم فى ريب من هذا الحكم الصارم فانظروا مصير أهم المؤلفات ، فان أعظم كتاب فى مصــر لايطبع فى كل مائة سنة أكثر من مرتين ، أكان يصح ذلك لو كان الموظفون من عشاق القراءة والاطلاع وهم يعدون بالألوف ؟

قد تقولون إنهم يعوضون ماينقصهم بالاطلاع

على الجرائد والمجلات ، وهذا أيضاً غير صحيح ، فالموظفون فى الأغلب منقطعون عن الحياة الأدبية ، وقد يلقانى الرجل منهم فيوجه إلىّ أسئلة عن ناس لايعرف أن صلتى بهم انقطعت منذ سنين ، وقد اتفق منذ أيام أن أرسل إلىّ أحد كبار الموظفين خطاباً على كلية الآداب ، مع أنى فارقت تلك الكلية منذ أشهر طوال ونشرت عن بعض خصومى فيها أكثر من عشر مقالات ، وكنت أظن أن مثل هذا الحادث يصل صداه إلى جميع الآذان .. هذا عيب من عيوبنا فلندمغه غير هائبين ..

■ ١٣ ■

ولكن ما هو العلاج ؟

أنا أقترح أن تؤلف في وزارة المعارف لجنة خاصة بتشجيع التأليف تكون مهمتها فحص مايصدر من المؤلفات لتختار مايجب أن يقتنيه الموظفون ، وفى هذه الحال أقترح أن تخصم الحكومة عشرة قروش فى كل شهر من كل موظف ، وتقدم إليه في كل سنة خمسة كتب أو ستة من جيد المصنفات .

ولو تحقق هذا الحلم لخلقنا فى الجماهير المصرية ذوق القراءة والاطلاع ، لأن الموظفين في مصر لهم إخوان وأبناء ، وهم سيعدون بهذا العرض الجميل من يتصل بهم من سواد الناس .

قد تقولون : وبأى حق نقطع فى كل شهر عشرة قروش من مرتب كل موظف ؟

وأنا أعترف بأن فى هذا حجرا على الحرية الشخصية !!

ولكن مصــر فى هذه السنين تحتاج إلى مثل هذه التدابير ، فنحن قوم حديثو عهد بالاستقلال ، وللاستقلال مقومات على رأسها اللغة كما تعلمون .

إن اللغة لاتراد لذاتها ، وإنما يقصد بها التعليم والتثقيف ، ونحن فى مصــر نحتاج أشد الاحتياج إلى المصلح المستبد الذى يسوقنا سوقاً إلى موارد العلوم والآداب والفنون .

اتذكرون ماصنع مصطفى كمال أتاتورك حين حرم لبس الطرابيش ؟

لقد عطل نحو عشرة ملايين من الطرابيش كانت تقوم بألوف الجنيهات لأنها لم تعوض إلا بمقادير عظيمة من القبعات .

وأنا لا أدعوكم إلى تبديد قروش الموظفين ، وإنما أدعوكم إلى تجميل بيوتهم بنفــائس المؤلفات ... أقدموا على هذه المحاولة الشعرية ، فان فعلتم فستذكروننى ماعشتم بالخير الجزيل .

■ ١٤ ■

وبجانب هذا الاهتمام بالتكوين الادبى لجمهور الموظفين يجب أن نهتم بالتكوين الادبى لجمهور الشبان ، ولاسيما تلاميذ المدارس الثانوية .

وأنا أقترح إلغاء دروس تاريخ الأدب فى تلك المدارس ، لأن تاريخ الأدب لايفهم إلا بعد درس الادب وأكاد أوقن بأن دراسة تاريخ الادب فى المدارس الثانوية ليست إلا ضرباً من تضييع الوقت ، وإجهاد العقول بلا عناء ، وهذا الحكم الصارم لايؤمن بعدالته إلا من عانى تدريس تاريخ الأدب فى المدارس الثانوية ، وأنا عانيته نحو عشر سنين ، وعرفت مافيه من البلاء الذى يصب على رءوس الطلاب بغير حساب .

ومن البلية ألّا تقدم وزارة المعارف لطلبة المدارس الا كتاباً ألفه جماعة لم يعرف أكثرهم عقلية التلاميذ فى المدارس الابتدائية ولا

الثانوية ، ولا دروا كيف يكون الرفق فى مهمة التدريس وان كانوا من أعلام الزمان .. وكان من العجب أن يفرض على طلبة السنة الثالثة أن يدرسوا تاريخ الأدب كله من عهد امرىء القيس الى عصر حافظ ابراهيم ، وهى دراسة سينمائية لايرضى عنها رجل يعرف مهنة التعليم .

وقد خفف البرنامج أخيراً بعض التخفيف ، ولكنه لايزال غير صالح ، وإلا فكيف تنتظر من تلاميذ السنة الاولى فى المدارس الثانوية أن يدركوا الفرق بين كاتب يغرم بالبديع وآخر لايتكلف البديع ، وقد عرضت لى هذه المشكلة مع طلبة الليسيه فشرحتها مرات بالعربية ومرات بالفرنسية ، ثم صدفت عنها صدوف اليائسين .

إن درس تاريخ الأدب بدعة نقلناها نقلا عن أوروبا ، وهى مقبولة هناك ، لأن الأدب الاوروبى يكثر فيه القصص والتمثيل ، وهى موضوعات ألفها التلاميذ ، لأنهم منذ الطفولة عرفوا القصص وعرفوا التمثيل ، فلايصعب عليهم أن يفهموا الفرق بين فن وفن ، وعصر وعصر ، وأسلوب وأسلوب .

أما فى مصر فالأدب فى جملته يتحدث عن شئون جدية لم يعرفها الشبان من قبل ، فمن العسير أن يدركوا كيف تطور واستحال من جيل إلى جيل .

إن تاريخ الأدب لاينبغى أن يدرس إلا فى المعاهد العالية ، أما المدارس الثانوية فيدرس فيها الأدب الصرف ، مع العناية بشرح النصوص ، والبحث عن مواطن الجمال فى النثر الجيد والشعر البليغ .

■ ١٥ ■

درس تاريخ الأدب فى المدارس الثانوية جهد ضائع وسنصبر عليه إلى أن تسوق المقاذير إلى وزارة المعارف رجلا حاذقا من بين الذين عرفوا عقلية التلاميذ ، وما أظن أننا سنصبر طويلا ، لأن العناية باصلاح التعليم تزداد من يوم إلى يوم .

وإلى أن تحذف تلك المادة الفضولية نوصى أساتذة اللغة العربية بأن يتخيروا للمطالعة والمحفوظات نصوصا لاتخرج عن العصر الحديث ، لأنه أقرب العصور إلى أذهان التلاميذ ، وقربه من أذهانهم يساعد المعلمين على بيان مايتصل به من الملابسات الخلقية والاجتماعية ، ويمكن التلاميذ من فهم مافيه من أسرار البيان .

قلتم أن اللغة من مقومات الاستقلال

فما الذى يمنع من تعريف التلاميذ بالمصاولات

الأدبية التى تتصل بالحياة السياسية ؟

ماالذى يمنع من دراسة ماوقع بين رجال الأحزاب

ماالذى يمنع من دراسة المناوشات الحزبية التى عرفتها مصر فى الثلاثين عاما الماضية ؟

ما الذى يمنع من درس ماوقع بين كبار الكتاب من صنوف الجدل وضروب النضال ؟

ما الذى يمنع من درس السخرية التى عاناها محمد عبده من معاصريه ؟

ما الذى يمنع من درس رسائل عبدالعزيز شاويش فى نقد سعد زغلول ؟

ماالذى يمنع من تقليب الصحف الفكاهية ودرس ما فيها من النكت اللواذع التى صوبت إلى رجال الأحزاب ؟

...

ما الدى يمنع من درس وطنيات حافظ ؟

بل ما الذى يمنع من درس المنشورات التى طبعت فى سنة ١٩١٩ ؟

إننى أوصى بخلق الفرص لتشويق التلاميذ إلى درس الأدب الذى يحيى النزعة القومية ، ويبعث

فيهم روح الشوق إلى حياة الاستقلال .

أقول هذا وأنا أعلم أن ماأوصى به آت لاريب فيه ، ولكن من الخير أن يعلم أبناؤنا اننا نفكر بعقول المستقلين ، وأننا لانمزح حين نتكلم عن مقومات الاستقلال .

■ ١٦ ■

ذلك مانوصى به فى التعليم الثانوى ، فاذا انتقلنا إلى التعليم العالى فرضنا على أبنائنا أن يتعمقوا فى درس تاريخ الأدب العربى ، ورُضناْهم على تذوق النصوص المختلفة ، وانتظرنا منهم أن يكونوا من أعلم الناس بالأدب والتاريخ .

وفى هذه الحال لايرضينى أن يكتفى أستاذ الأدب بالطواف حول حياة الكاتب أو الشاعر أو الخطيب ، بل يجب أن يهتم بدرس الصلات بين الأدب والاجتماع ، وأن يغرى تلاميذه بخوض الحياة ، حياة الجد والاقتحام ، فتكون لهم مواقف يسجلها التاريخ ، على نحو مااتفق لاقطاب الأدب فى العصر القديم .

والأستاذية فى هذه الأحوال توجب أن يكون رجال الأدب رجال اعمال ، فقد شبعنا من تلك

الشخصيات المصقولة التى تحسن الأسمار والأحاديث ، نريد أساتذة مقتحمين مغامرين يشتركون فى الحياة النيابية ، ويتصلون بأمتهم وتلاميذهم اتصالا قويا له أسباب وأوتاد من حياة المجتمع اللاجب الصخاب .

■ ١٧ ■

فإذا انتقلنا من الأدب وتاريخ الأدب فى المدارس الثانوية والعالية ، تلفتنا نبحث عن الأديب المخلوق لدرس الحياة ، ونحن نرجو أن يكون فى أساتذة الأدب من يخرج على الذوق المتكلف والوقار المصنوع ، نرجو أن يكون عندنا أساتذة يزورون تلاميذهم فى بيوتهم ، ويرافقونهم فى الحفلات والسهرات ، ويطوفون بهم على الأحياء الشعبية ليعلموهم كيف تكون الثورة على مافى حياة الشعب من بؤس وشقاء

نريد أساتذة يربون تلاميذهم على مرافقة العمال والصناع والفلاحين ليكونوا فى المستقبل من حملة الأقلام النورانية التى تبدد غياهب الجهل والخمول .

نريد أدبا يبعث فى الشعب روح التمرد على الفقر والمسكنة والذل ، ويروضه على الطمع الشريف فى الغنى والكسب والعزة والكبرياء .

نريد أدبا يطمعنا فى استرجاع ما أضاع الزمان من مجد مصر والنيل .

نريد أدبا يرفعنا إلى صفوف الجوارح ، نريد أدبا يعلمنا فضل المخلب والناب ، نريد أدبا نسيطر به على الدنيا غير باغين ولا عادين .

■ ١٨ ■

ولن تكون اللغة من مقومات الاستقلال إلا حين تسود فى وطنها سيادة قاهرة فتسيطر على العقول والمشاعر والأذواق ، ولايتم لها ذلك إلا يوم يقوى أدبها ويستفحل ، فيشغل الناس بدرس قلوبهم وأهوائهم وأخلاقهم ، ويكون له شعراء وكتاب ومحدثون يغزون القصور والأكواخ ، ومن الحزم أن نشير إلى وجوب العناية بتربية الشبان على حب وطنهم فى ماضيه وحاضره ، ولايكون ذلك الا بقهر الأدب على تصوير مامر بمصر من نعماء وبأساء ، وما شهدته من أنوار وظلمات ، ومايساورها من مخاوف أو يداعبها من آمال .

يجب أن يوجه الأدباء عنايتهم إلى خلق بيئة أدبية يكون جدها وهزلها متصلا بحياة الوطن كل الاتصال ، يجب أن تكون أحزاننا وأفراحنا،

وإسقافنا وتحليقنا ، وضلالنا وهدانا ، وآلامنا وآمالنا مصورة فيما ننشىء من الرسائل ، وما ننظم من القصائد ، ومانكتب من المؤلفات ، ومانتغنى به من الأناشيد .

أننا لانحب وطننا أصدق الحب ، لأن غرامنا به لم يشبه شىء من التصوف والروحانية ، وكان ذلك لأن الشعراء لم يخلقوا فى قلوبنا ذلك الحب ، وكيف يخلقونه وقد غفلوا عن الاشادة بما أنتثر من معالم الحب والمجد على ضفاف النيل ؟

لقد جلست لحظة منذ أيام فى ذهبية ، ثم مرت سفينة فانتشيت ، أتعرفون السبب ؟ لقد طاف بالخاطر حرّاقات دجلة والفرات التى تغنى بها شعراء العراق .

أكنت أقاسى هذه الغربة الروحية لو أن شعراءنا شوقونا إلى سفائن النيل ؟

أتذكرون قول الشاعر العراقى :

يالَيْتَ مَاء الفرات يُخْبرُناَ
أَيْنَ أُسْتَقَلَّتْ بِأَهْلِها اُلسُّفُنُ

إن هذا البيت أُمَّه من الشعر الجميل ؛ وكان مما يحفظ جميع أهل العراق ، فهل تذكرون شاعرا

مصريا حبب إلينا النيل على نحو مافعل ذلك الشاعر فى تمجيد الفرات ؟

أين مآسينا ، أيها الشعراء !

أين القصائد التى تصور ماعانته مصر يوم حريق الفسطاط ؟

أين الشعر الذى يمثل مذبحة المماليك ؟

أين القصص التمثيلية التى ترينا أشباح الليالى السود حين انهزم الجيش المصرى فى الموقعة التى لم يجف دمها إلى اليوم ؟

أين القصائد والرسائل التى تصور عيوبنا الأخلاقية وقد عانينا صنوف البلايا والأرزاء من شيوع المحسوبية والتزلف والنفاق ؟

وأين مواسمنا الغر أيها الأدباء ؟

أين القصائد والرسائل والخطب والمؤلفات التى تفصح عن عبقريتنا فى مقاومة الخطوب ؟

إن صبر الجيش المصرى على منازلة الجيش الانجليزى فى معركة فاصلة دامت ثلاث عشرة ساعة هو فى ذاته نصر مبين ، ولكن أين من يفهم دقائق المعانى فى حياة الشعوب ؟

دلونى على كاتب واحد استطاع أن يخلق فى

قومه الشعور بأنهم يعيشون فى وطن نبيل ؟

دلونى على كاتب واحد همد الى الجوانب القوية من زعمائنا وقادتنا فى القديم والحديث فأفصح عنها إفصاحا يجعلها مضرب الأمثال فى المشرق والمغرب على نحو ماصنع كتاب الانجليز والفرنسيس والطليان والألمان ؟

أيها الناس

إن اللغة لاتكون من مقومات الاستقلال الا يوم تشغلنا بمخاوفنا وأمانينا ، ويوم تصبح من القوة بحيث يكون لها عشاق فى المشرق والمغرب ، ويوم تطغى فى وطنها وتستطيل فلا يكون لها مزاحم ولا منافس ولا شريك .

وخلاصة القول أن اللغة لاتكون من مقومات الاستقلال إلا يوم يشعر الناس جميعا بأن لها فى وطنها سلطانا دونه كل سلطان ، يوم يشعر من يدخل ميناء الأسكندرية أو بورسعيد أنه فى حاجة إلى مترجم ، وأن مصالحه تعطل إن جهلها كل الجهل ، على نحو ما يقع لكل وافد يطأ الأرض الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية .

وأول مايجب لتحقيق ذلك هو إعزاز اللغة فى

أنفس أبنائها ، وهى لاتعز فى أنفسهم إلا حين تغنيهم أو تكاد تغنيهم عن جميع اللغات ، حين تصبح لغة العلم والمدنية فيجد فيها كل طالب مايسعفه من المراجع فى العلوم والفنون والآداب .

لاتكون اللغة من مقومات الاستقلال إلا حين تفى بأغراض الجد والهزل ، وتربط أبناءها بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أوثق رباط ، وسيكون هذا مصير اللغة العربية فى مصر إن صحت العزائم وسلمت النفوس .

وهذا أمل ليس بالبعيد ، فلا تحسبونى من الحالمين .

■ ١٩ ■

والدين ؟

أهو أيضا من مقومات الاستقلال ؟

وكيف وفى الشرق والغرب ناس يتحللون من الدين ليعيشوا سعداء ؟

هذه فرنسا تحارب رجال الدين وتحول بينهم وبين مناصب التعليم ، ثم تعيش مع ذلك فى حرية واستقلال .

وتلك تركيا تقلم أظفار الأشياخ وتقبل على الحياة المدنية ، فلا يزيدها ذلك إلا قوة ، واستقلالا إلى استقلال .

ولكن مهلا ، فان تلك الأمم القوية لم تحارب غير الدين المزيف ، أما الدين الصحيح فهو بلا ريب من مقومات الاستقلال .

الدين المزيف بلاء يصبه التأخر على الأمم

والشعوب لأنه يمنح الكسالى والعاطلين سلطانا خطرا يشل حركة التقدم والنهوض . ورجال الدين المشعوذون لهم سوابق فى قتل الحرية ، واضطهاد الأحرار ، وطمس معالم العلوم والفنون .

أما الدين الصحيح فهو ثروة قومية يجب أن يحرص على تنميتها ساسة الشعوب .

الدين الصحيح حجاز من الزيغ والإفك والبهتان ، وهو حين يقوى يصبح من أدق الموازين فى ضمائر الأفراد ويغنى الدولة غنى لايعرف قيمته إلا من يعرف ما للخلق القويم من أثر حميد .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لانعدمت النمائم والسعايات والوشايات ، وانقطعت هذه المجازر البشرية التى يخلقها الدس والاغتياب .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما رأينا شهود الزور يضللون القضاء بلا حياء .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لما استطال الأقوياء على الضعفاء ، ولما رأينا ذلك الحقد الذى يبيته الفقراء للاغنياء .

لو كان للدين سلطان على أرواح الناس لقل البغى والعدوان ، وعرف كل أمرىء قدر نفسه ، وأطمأن إلى أن الله مالك الملك ، يؤتى الملك من يشاء .

الدين ثروة قومية وهو عماد من عمد الاستقلال ، لأنه يصحح ضمير الفرد ، ، والفرد الصحيح الخلق ليس إلا حجرا سليما فى بناء القومية .

حدثنى بربك ماهذه الملايين التى تعمر وادى النيل ؟

ماقيمة هذه الملايين وأنت لاتستطيع الأخذ والعطاء إلا بسند مكتوب ؟

اذهب إلى أية محكمة وأحضر جلسة أو جلستين ، فان فعلت فسترى القاضى ينفق أربعة أخماس جهده فى فحص المستندات واستجواب الشهود .

أكان يحتاج القاضى إلى ذلك كله لو كان للناس وازع من خلق ودين ؟

الله أكبر !

لايزال من تقاليد القضاة أن يقولوا للشاهد

قل : «والله العظيم أشهد بالحق» .

وكم رأينا ناسا يحلفون بالله العظيم ثم لايشهدون بالحق !

ما قيمة هذه المخلوقات ؟ وما الذى يفرحنا حين نعدهم كل خمس سنين فنراهم زادوا مليونا أو مليونين ؟

ماقيمة هذه المخلوقات وأنت لاتعادى من تعادى ولاتصادق من تصادق إلا على حذر ؟

مافضل هذه الملايين وليس فيهم من يعصمه الحياء من الزور ، أو يصده الدين عن البهتان ؟

خاصم رجلا واحدا ، على سبيل التجربة ، ثم انظر كيف يطعن فى عرضك ، وكيف يلغ فى دمك ، وكيف ينسى أنه مسئول أمام الله عما يقترف لسانه النجس الخبيث !

إنك لاتستطيع اليوم أن تعادى أحدا فى سبيل الحق ، لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان .

أتروننى أظلم قومى ؟ أنا لا أظلمهم ، وإنما أشرح بلية اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال ،

تقولون إن الدين من مقومات الاستقلال ، فدعونى أشرح كيف يكون ذلك ، وأنا أصرح بأن مانعانى من البلايا الأخلاقية لم يقع إلا بسبب ضعف الدين ، ولو كان الناس يؤمنون بأن الله يعلم ما يضمرون ومايعلنون لكف قوم عن إيذاء قوم ، وتورع فريق عن الإضرار بفريق .

■ ٢٠ ■

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يتمثله ناس فى الصلاة والصيام واصطناع شمائل النساك ؟

لا ، لا

الدين الذى يبنى الأمم هو الدين الذى يهتم أهله أولا وقبل كل شيء بالفضائل الإيجابية .

لايكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترسلوا لحاكم وتكثروا من التسبيح ، فهذه فضائل ، ولكنها فى روحها فضائل فردية .

إن الدين الذى يسند الاستقلال هو الدين الذى صوره الرسول حين قال .

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»

الدين الذى يصون الاستقلال هو الدين الذى

يوحى إليك بأن تكون عون أخيك فى المغيب ، هو الدين الذى يفرض عليك الإيمان بأن عرض أخيك هو عرضك وماله مالك ، وهواه هواك .

هو الدين المضمّخ بالنفحات الشعرية الذى يوجب عليك أن تفرح لفرح أخيك ، وأن تحزن لحزنه ، وإن تقطعت بينك وبينه الأسباب .

هو الدين الذى صوره شوقى حين قال :

مقدونيا ـ والمسلمون عشيرة ـ
كيف الخؤولة فيك والأعمام

هو الدين الذى تتمثل به كل فرد من أمتك وكأنه إنسان من أهلك .

هو الدين السمح الكريم الذى تغنّى به الرسل والأنبياء .

وهذا الدين الذى نتحدث عنه هو الدين الذى يرفع قواعد الاستقلال ، وبدونه لايرفع لأمة بناء .

إن الدين الحق يوصى بدفن الضغائن والحقود ، والناس لايستطيعون التعاون على بناء الوطن إلا إن استطاعوا التعاون على بناء الاخاء .

فانظر أين أنت من إسعاد قومك ، فإن كنت رجلا يفرح لفرح عدوه ويشجى لشجاه ، فأنت أمرؤ فيك خلق ودين ، وإن كنت لاتفكر إلا فى نفسك وفى أشياعك فأنت من العصبة الوحشية التى أطال فى ذمها الحكماء .

- ٢١ -

الدين من مقومات الاستقلال

ولكن أى دين ؟

أهو ذلك الدين الذى يقوم على قواعد الرياء ؟

رباه ، كم قاسينا من عنف المرائين !

إن الرياء فى الدين باب إلى الخراب ، لأنه يروض الناس على التكلف والافتعال فيما يأخذون وما يدعون ، ويوحى إليهم أن المراوغة لباقة وذكاء .

أنا أشتهى أن أومن ، ولكن الشوق يخمد فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين .

أليس من الحق ، أيها الناس ، أن الصراحة فى زماننا خلق بغيض ، وأن النفاق يسمو بصاحبه أحيانا الى رفع الدرجات ، وأن المداهنة أصبحت أمضى سلاح ؟

تلك بلية خلقية نشير اليها كارهين ، لأنها تهدم قواعد الاستقلال ، ونحن لانذكر الاستقلال لاهين ولا عابثين ، وإنما نغرم بالاستقلال لأن فيه شرف الشعوب ، ولن تشرف أمة تتغاضى عن أعمال المرائين .

ولست آوصى بإعلان الحرب على آهل النفاق ، وإنما أوصى بالحذر منهم ، لأنهم سوس الخراب فى هيكل الاستقلال .

ومن واجب القائمين بالأمر أن يحذروا المنافقين ، لأن النفاق خليق بأن يأتى على بناء الوطن من القواعد ، والعياذ بالله ، وإنما أعنى الرؤساء الذين يصغون إلى كل مرجف ، ويصيخون إلى كل مشاء بنميم ، أوصى بالحذر من مرضى الحذلقة والمراءاة وافتعال النزاهة والاخلاص ، أوصى بالفرار من كل مخلوق لا يضحك إلا حين يبكى الناس ، ولا يفرح إلا يوم يحزنون .

والى من أتوجه بهذا النصح ؟

لست أدرى والله الى من أتوجه ، فقد ساء ظنى بأبناء الزمان ، ولكن لا بأس من توجيه القول الى

من تفضلوا بدعوتنا الى الكلام عن فضل الدين فى بناء الاستقلال ، ولا بأس من توجيهه الى أعضاء لجنة التحكيم فى المباراة الأدبية ، فقد أغناهم الله من فضله ، ورفعهم عن مذاهب الضعفاء ، وكل رجل منهم يقدر بلا مشقة على حرب هذا الخلق الذى ينافى الدين الصحيح ويهدم الاستقلال .

وليس من الفضول أن أتوجه اليهم بذلك فقد دعونا الى ابداء ما عندنا من آراء ومقترحات ، ومن الفضل أن يصغى الآباء الى الأبناء وليس أمام الحق فاضل ومفضول .

■ ٣٣ ■

أحب أن اعرف كيف يكون الدين سياجا لبناء القومية ، وأنا أتمثله قوة معنوية وروحية تضمن سلامة الوطن من الوجهة الداخلية ، فإذا تحاب الناس وتصافوا وتآلفوا كانوا قوة هائلة شبيهة بالأعضاء القوية فى الجسم السليم .

إن الاخلاق الدينية فى بناء الأمة تذكرنا بالجراثيم النافعة التى يقوم عليها جسم الانسان ، ألم تسمعوا أن هناك جراثيم فى داخل الجسم تثب دفعة واحدة فى وجه الجراثيم الضارة التى تفد مع الطعام أو الشراب ؟

كذلك تفعل الاخلاق الدينية ، فإن الأمة حين تصح فى دينها تظل قوية متينة ، لا يفد

عليها واغل الا دفعته عنها بقوة وجبروت .

وهذا هو التفسير الحق لكلمة من قال : إن الدين من مقومات الاستقلال .

■ ٣٣ ■

ثم ماذا ؟

إن الدين الحق يعصم من الشقاق ، ولن يكون الدين من مقومات الاستقلال إلا حين يصون الوحدة القومية من التفكك والانحلال ، ولعل السر فى كره البدع أنها تقسم الناس الى شيع وأحزاب ، وتغريهم بالتعادى والعناد ، وترميهم بأسباب الفتون .

والأمة السعيدة بدينها هى الأمة الموحدة المذهب ، أما الأمة المشتتة فى نوازعها الدينية فهى أمة ضعيفة الرأى منحلة العزم ، لا يرجى لها سلام .

ولكم أن تستفتوا التاريخ .

أتذكرون كيف سقطت بغداد فى أيدى التتار ؟

إن ذلك لم يقع إلا بسبب أنقسام الأمة العراقية الى عصبتين مختلفتين فى الدين .

وما لنا نستشهد بالتاريخ ؟ إن فى الحاضر عبرة ، فقد جدت فى مصر نفسها فتن دينية يعرفها من يخالط السواد فى الأحياء الشعبية ، ويكفى أن يعرف القارىء أن فى القاهرة مساجد يدخلها ناس ، ويطرد منها ناس ، وأن فى بعض القرى أسرات تتقاطع أبشع التقاطع بفضل الانقسام فى مذاهب الدين .

ولست بهذا أوجب أن يقفل باب الاجتهاد ، وأنما أوصى بأن تحصر الأبحاث الدينية على البيئات العلمية ، وأنصح بأن يحرس العامة حراسة شديدة من المشاركة فى الخلافات المذهبية والدينية .

إن العوام هم ذخيرة الأمة ، ومنهم يتكون الجيش وبفضلهم تقوم المتاجر والمزارع والمصانع ، فمن الحزم أن يعيشوا على عقيدة واحدة ومذهب واحد ، ومن البلاء أن تتكرر المأساة التى وقعت فى شبين الكوم منذ عام ،

والتى تقع أشباهها فى كل يوم ، وإن لم تدون أخبارها فى محاضر البوليس .

ومن الحزم أن تسارع الحكومة الى حراسة الأهلين من انقسامات الصوفية ، فإن التصوف أصبح فى أكثر البلاد من أسباب الشقاق ، مع أنه فى الأصل من أسباب الألفة والصفاء .

ولايمكن تحقيق هذا الغرض الا بتخير من يقومون بالدعايات الصوفية ، ويجب أن يكونوا من أهل النزاهة والاخلاص . أما جعل الديار المصرية مسرحا للمفاضلة بين الخلوتية والشاذلية فهو باب من الشر لايعرف أخطاره الا من عرف عقول العوام ورأى كيف يختصمون ويقتتلون لأتفه الاسباب .

■ ٢٤ ■

يظهر أنكم ترتابون فى خطر الشقاق،

تفضلوا بتأمل هذه الصورة :

يذهب المصلون الى المسجد الجامع يوم الجمعة فيسمعون سورة الكهف بقلوب لاتخلو من قلق ، لأن فيهم من يراها سنة ، وفيهم من يراها بدعة ، فإذا أذن المؤذن انقسموا الى فرقتين : فرقة تبيح السلام على النبى بعد الاذان وفرقة تأباه ، فاذا قامت الصلاة رأينا من يسر القراءة ، ورأينا من يكتفى بقراءة الامام ، فإذا أنتهت الصلاة رأيناهم جماعتين : جماعة تصلى الظهر وجماعة تنصرف .

وهذه الصورة لايعرف خطرها المثقفون من أهل الحواضر لأنهم لايقيمون وزنا لأمثال هذه الشئون ، إذ كانت عقولهم أرفع من أن تختصم فى

غير مختصم ، ولكنها تبدد قويِ الاهالى فى الريف وتهد من بناء الاستقلال .

وأنا أقترح أنٍ يَطِبَّ أهل الرأى هذا الجرح ، وأتمنى أن تعيش الأمة كلها على مذهب واحد فى الأصول والفروع ، على نحو ما كانت تركيا فى العهد القديم ، فقد كانت فى مسائل التوحيد على رأى واحد ، وكانت فى التشريع على مذهب واحد ، ومن المحقق أن وحدة تركيا فى نوازعها الدينية ، كانت من أهم الأسباب فى سلامة وحدتها القومية .

أقول هذا وأنا أعرف أن خطر الانشقاقات المذهبية فى مصر صائر الى الزوال ، ولكن لابأس من التنبيه الى ما بقى من أوزاره ليحذره المصلحون .

■ ٢٥ ■

وتظهر بشاعة الانقسام إذا تذكرنا ما فقدنا بسببه من النعيم .

أتذكرون السر فى تفضيل صلاة الجماعة ؟ أتذكرون السر فى الدعوة الى اجتماع أهل البلد الواحد ، فى مسجد واحد ، مرة فى كل أسبوع ؟ أتذكرون السر فى التشويق الى أداة صلاة العيد فى ضاحية البلد ليتيسر للناس جميعا أن يتصافحوا بالأيدى والقلوب ؟

تذكروا السر فى ذلك لتعرفوا أننا حرمنا نعيما كثيرا منذ ابتلينا فى ديننا بالخلاف .

وليس هذا كل ما حرمناه ، فقد انعدمت صلاة الجماعة ، أو كادت ، ومضت صلاة العيد الى اللحاق بذكريات التاريخ ، ولم يبق لنا نصيب من أسباب الصفاء .

ليت من يختصمون ويقتتلون بسبب المنازعات الأدبية والسياسية يعرفون السبيل الى المساجد ! إنهم لو فعلوا لكان من اليسير أن تذهب أحقادهم حين يتصافحون عقب الصلاة .

ليت من يتعادون يلتقى بعضهم ببعض فى صلاة العيد ! إنهم لو فعلوا لدفنوا أحقاد العام الماضى ، وقلدوا العام الجديد وساما من ود جديد .

أليس الصفاء الذى نشير اليه من بعض ما يصنع الدين فى بناء الاستقلال ؟

لقد حاول سمو الأمير عمر طوسون منذ سنين أن يجمع أهل الاسكندرية فى مكان واحد فى أيام الأعياد ، وكانت فكرة سامية ، ولكنها لم تنجح مع الأسف الشديد .

فما الذى يمنع من إمضاء هذا الرأى مرة ثانية باسم الدين ؟ ما الذى يمنع من جعل الأزهر ملتقى لأقطاب البلاد ، فى أيام الأعياد ؟

بل ما الذى يمنع من خلق صورة جديدة للتشريفات الملكية ، بحيث تكون موسما أغر تلتقى

فيه القلوب والأهواء ، ويتنادى فيه الناس باسم الحق والدين ؟

إن أكبر ما يعاب به أهل مصر هو موقفهم موقف المتفرجين فى أيام الشقاق ، ولو عرفوا أن دينهم يوصيهم باصلاح ذات البين لوقوا مصر كثيرا من أسباب الفتون .

إن الدين من أهم القوى فى خلق التماسك الاجتماعى ، والتماسك الاجتماعى أهم ما يحفظ به بناء الاستقلال .

■ ٣٦ ■

وليس هذا كل ما يصنع الدين فى بناء الممالك والشعوب ، فهناك مزية أساسية هى خلق الشجاعة فى نفوس الناس .

الشجاعة ؟

أى شجاعة ؟

نعم ، الدين يخلق الشجاعة فى النفوس ، ولولا الايمان بعدل الله ورحمته لتهدمت عزائم وتحطمت قلوب وانطفأت أرواح .

إن الرجل المؤمن يلقى المكاره باسما ، ويوقن فى كل لحظة بأن الشر لايطارده إلا لحكمة سامية ، وبذلك يظل سليم القلب والوجدان ، فيحيا حجرا سليما فى بناء الاستقلال .

الرجل المؤمن لايتهيب العيش لأنه يعرف أن الرزق بيد الله ، وتهيب العيش محنة خلقية ابتلى

بها شبان هذا العصر ، فانصرفوا عن الزواج فرارا من الذرية التى تعرضهم فيما يزعمون للفقر والاملاق .

نريد لمصر جيلا مؤمنا يغامرة وهو متوكل على الله ، فينتصر وهو شاكر ، أو ينهزم وهو صابر .

نريد جيلا يؤمن بأنه مسئول أمام الله قبل أن يكون مسئولا أمام الناس .

نريد جيلا يبحث أولا عن الحق ، ثم يقدم إقدام الشجعان واثقا بأن النصر نصبيب المؤمنين ، وأن العاقبة للصابرين .

نريد جيلا يستهين بطغيان الطاغين ، وكيد المفسدين ولؤم الحاقدين ، لأنه يؤمن بأن الله أكبر ، ويوقن بأنه بسيمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

والشجاعة التى يخلقها الدين فى القلوب هى أساس كل خير ، فإن الرجل الذى لايملك زمام نفسه فى حياة البيت ، لايصلح جندياً في الجيش . ولايمكن لمن عجزوا عن سياسة أنفسهم أن يصلحوا لسياسة أمتهم ، ومن عجز عن الكفاح الشريف فى سبيل الرغيف لن يقوى أبدا على

الجهاد المشروع فى سبيل الوطن الغالى .

وكيف يصان الاستقلال إن لم تحطه عزائم بنيت على الايمان الصحيح ، الايمان ، بأننا لم نخلق عبثا ، وأن النضال فى سبيل المجد الروحى والوطنى من أشرف الغايات فى الوجود ؟

■ ٣٧ ■

ومصر من أقدر الامم على تقوية العقيدة الدينية ، ففيها الأزهر الشريف ، وعندها من رجال الدين ألوف وألوف .

أفأستطيع أن أقول كلمة عن واجب الأزهر الشريف ؟

ما أحسبنى أخرج عن الموضوع ، فإن لجنة التحكيم دعت الى ابداء ما عندنا من آراء ومقترحات . وأنا أعوذ بالله من الفضول .

الأزهر يستطيع أن يضاعف جهده فى خدمة اللغة والدين .

يخدم اللغة لأن فى إذاعة النصوص الاسلامية خدمة لغوية ، وليس من الاسراف أن نحكم بأن حياة اللغة بين الأهلين ترجع الى حفظ القرآن وتلاوته فى المآتم والأفراح ، وللمدائح النبوية

فضل فى إذاعة النصوص الأدبية ، والألفاظ اللغوية ، فإن المنشدين الذين يتغنون بمدح الرسول تركوا فى أذهان الناس مئات من الصور الشعرية ، وعلموهم كثيرا من طرائق التعبير ، وأمدوهم بكثير من المعارف فى حوادث التاريخ .

فما الذى يمنع من إنشاء لجنة أزهرية للمطبوعات الدينية ؟

ما الذى يمنع من نشر مجموعة لطيفة نذيع بها نحو ألف حديث من كلامِ الرسول ، ونطبع منها ملايين توزع بثمن يقدر عليه جمهور الفقراء ؟ .

ما الذى يمنع من نشر مجموعة تحوى أروع الأخبار أخبار الصديقين والشهداء ؟

وما الذى يمنع من اختيار طائفة من الأحاديث والآثار تكون مادة للمطالعة فى المدارس الابتدائية والثانوية ؟

■ ٢٨ ■

وبهذه المناسبة أصارحكم بأن الصلة كادت تنقطع بين الأزهر ووزارة المعارف ، بل هى انقطعت فعلا منذ أعوام طوال ، وأخشى أن تكون هذه القطيعة بداية العداوة بين الحياة المدنية والحياة الدينية ، وهي عداوة خطرة العواقب ومن واجبنا أن نتقى شرها منذ اليوم .

وانا اقترح ان يلحظ في التلميذ أنه سيكون عضوا فى المجتمع الشعبى قبل أن يكون عضوا فى المجتمع المثقف ، والمجتمع المثقف قد لايضيره أن يجهل أصول الدين ، لأن حياته فى الأغلب موصولة بالمدنية الغربية التى تناست خطر الدين .

ولكن ماهو المجتمع المثقف الذى نعتمد عليه فى بناء الاستقلال ؟

أهو تلك الفئة القليلة الضئيلة التى تمضغ الأخبار فى القهوات ، ولا تصلح لاقامة مصنع أو متجر أو مزرع ، ولاتقوى على مواجهة الخشونة فى حياة الجندية ؟

المجتمع الشعبى هو الأصل ، فلنرض أبناءنا على فهم مافيه من قواعد وأصول ، وهو لاينهض إلا على أساس الدين .

■ ٣٩ ■

وهذا يفرض علينا أن نفكر جديا فى مصير التربية الأزهرية فإن الأزهريين لهذا العهد لم يعد يهمهم أن يتصلوا بالحياة الشعبية ، فقد انتهبوا كلمة (المستقبل) من تلاميذ المدارس ، وأخذوا يترقبون حظوظهم فى المصالح والدواوين ، وذلك من أهم المقاتل فى حياة الاستقلال .

لقد آن للأزهر أن يعرف واجبه ، آن للأزهر أن يفكر فى استرجاع سلطانه الذى ضاع .

أين الأيام التى كان يحتفل فيها الأهالى بقدوم الأزهرى الصالح الذى يحدثهم عن الله والرسول ؟

أين الدروس التى كنت أشهدها وأنا طفل بعد صلاة العصر فى رمضان ؟

أين الآمال الحلوة التى كنا نسمعها من العلماء عن مصير الصالحين ؟

أين ، أين تلك الوسوسة الخلقية الظريفة التى كانت تنتاب من يخرج على بعض آداب الصلاة أو الصيام ؟

اين الزواجر التى كان يرتعد من هولها من يقترفون إثم النميمة والاغتياب ؟

أيها الناس !

أنا أشتهى أن أومن ، فخذوا بيدى موفقين الى رحاب الدين ، الدين السليم من أوضار الشرك والرياء .

■ ٣٠ ■

والعاداتُ ؟ أهى أيضا من مقومات الاستقلال ؟

نعم العادات من مقوماث الحياة فى الممالك والشعوب ، ولكن كيف ؟ إن ذلك يحتاج الى تفصيل .

ولنبدأ فنذكر أن العادات كلمة قديمة كان يسميها ابن خلدون عوائد ، وهى اليوم تعرف باسم التقاليد ، ويكاد العرف الحاضر يفرق بين اللفظين : فالعادات للأفراد ، والتقاليد للجماعات والهيئات ، فالعادات شخصية والتقاليد جماعية .

ويغلب على الظن أن الذين وضعوا العنوان تحاموا كلمة التقاليد عامدين لسبب طارىء لايخفى على اللبيب .

ولكن نحن لا نرى بأسا من الحرص على كلمة

(تقاليد) لأنها فى العرف الحاضر تنفرد بمدلول خاص ، وسيقول الناس (تقاليد جامعية) و (تقاليد دستورية) وإن تحاماها من فرضوا هذا العنوان .

■ ٣١ ■

والعادات تميز الأمم بعضها من بعض ، وهى من أجل ذلك تعد سمة شخصية ، والسمات الشخصية من أظهر الدلائل على حيوية الشعوب .

ولنداعب الموضوع قليلا فنذكر أن لكل أمة أذواقا فى الطعام والشراب ، ففى مدينة باريس مثلا يرى المتطلع مطعما تركيا ، ومطعما نمسويا ، ومطعما صينيا ، ولكنه لن يجد مطعما مصريا ، لأن المصريين ليس لهم مذاهب فى الطعام والشراب ، وأكاد أجزم بأن مصر لاتنفرد فى أطعمتها بغير البصارة والفول المدمس والفطائر فطائر المواقد والأفران .

ويحار الشاب المصرى حين يفكر فى إنشاء مطعم بمدينة أوربية ، لأن مطعمنا أندمج فى المطعم التركى منذ أجيال ، ولم يبق لنا

خصائص ، حتى فى أوانى الطعام والشراب ، ولنا فى ذلك عذر مقبول ، فإن موقع مصر الجغرافى جعلها ملتقى الوافدين من الشرق والغرب ، وفرض عليها الأخذ من كل مدنية بنصيب .

وإنما خصصت هذا الجانب بهذه الفقرة لأدل القارىء على قيمة الخصائص الذاتية ، ولأستطيع التحدث عما تعود الناس فى هذه البلاد .

■ ٣٢ ■

وما قلته عن الدين أقوله عن العادات ، فالعادات لاتكون من مقومات الاستقلال إلا إذا كانت صوالح أما العادات السيئة فهى من أسباب الانحلال .

والمهم فى العادات الصوالح أن تصبح قوانين ، وألاّ يخرج عليها ألا المفسدون ، ومتى تأصلت العادات الصوالح وأصبحت رعايتها قانونا قوميا شعر الناس بقوة فى حيويتهم الذاتية ، وأصبحوا بفضلها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكان حرصهم عليها من مقومات الاستقلال .

■ ٣٣ ■

كان من عادات المصريين أن يبدأ بعضهم بعضا بالتحية على الطريقة الإسلامية .

أما اليوم فقد انقرض هذا التقليد الحميد ، وأصبح المؤمن لايحيى المؤمن إلا إذا سبق التعارف ، وتلك عادة نقلناها عن الأوربيين ، وحملنا وزرها الثقيل .

وأنا أوصى بالرجعة إلى ذلك التقليد الجميل ، لأن له مزايا فى تقريب القلوب بعضها من بعض ، ولأنه يشعر بالأخوة الروحية والوطنية ، ويخلق للرجل ألوفا من الاخوان .

أنت فى هذا الزمن لاتواسى غير من تعرف ، فلو رأيت مأتما فى طريقك لتحاميت الذهاب إليه ، إلا أن يكون أهله من المعارف والأصدقاء .

ولم يكن الحال كذلك فى العصر الخالى ، فقد كان من الواجب على الرجل أن يمشى فى كل جنازة ، وأن يواسى كل محزون ، وألا يخص ببره أصدقاءه وعارفيه ، وكان من عاداتِ الناس أن يصافحوا كل من يلقون فى أيام الأعياد ، وأن يتبادلوا التهانى وإن التقوا بلا معرفة على ظهر الطريق .

ولست فى حاجة إلى توكيد القول بقيمة هذا التقليد فى ربط الأواصر القومية ، فهو أوضح من أن يحتاج إلى بيان .

وتظهر قيمة ذلك التقليد الحميد إذا تذكرنا تفاهة ما صرنا إليه فى تحيات الأعياد ، فعهدى بالمصرى الحديث يركب سيارة ويطوف بأحياء المدينة فيترك لكل صديق بطاقة ثم ينصرف من دون أن يرى أحدا ، ونسى الناس قيمة المصافحة والتقاء الأعين والقلوب .

قد تعتذرون بأن الشواغل كثرت وصار الوقت أضيق ، ولكن ما رأيكم فى أننا غلونا فى ذلك غلوا صار بنا إلى السخف ، والعياذ بالله من قلة الذوق !

ألا تعرفون أن ترك البطاقة عند البواب فى أيام الأعياد صار أقوم من التحية بالتليفون ؟

ألا تذكرون أن التحيات الموسمية لم يعد لها قيمة إلا فى حساب مصلحة البريد ؟

ألا تذكرون أن المجاملات الواجبة صارت فى صميمها أعمالا آلية لاتغنى ولا تفيد ؟

وماقيمة هذه المتاعب في وصل القلوب ؟

ماقيمة البطاقة الصماء التى تمزق بعد نقل العنوان ؟

ماقيمة الأعياد إن لم نتنسم بها أرواح الأنس بتجديد الصلات ؟

لقد كان الناس يهتمون بالعيد فينظمون القصائد ، ويحبرون الرسائل حين يعز عليهم التلاقى ، أما اليوم فقد اكتفينا بالاشارات الدبلوماسية التى نقلناها عن أهل لندن وباريس ، وفاتنا أن لكل بلد تقاليد ، وأن مايحسن هنا قد يقبح هناك .

■ ٣٥ ■

وكان من عاداتنا أن نقيم السهرات في البيوت ، أما اليوم فقد انتقل السامر إلى القهوات .

وليتكم تعرفون أى أنس فقدنا منذ حرمنا المنازل بهجة الأسمار والأحاديث ؟

ليتكم تعرفون خطر ما نعانى من التبذل بالجلوس فى المشارب والقهوات ؟

ليتكم تعرفون كيف خفت موازين الناس منذ نفروا من هيبة العرين ؟

لقد كانت لياليناً كلها مواسم تشبه ليالى رمضان ، فصرنا لا نتلاقى إلا فى أندية تثقلها الكلفة ، ويعوزها الأنس ، وينقصها الصفاء .

كانت بيوتنا منتديات روحية يعرف بها أطفالنا من نألف ومن نحب ، فأصبحت مقفرة موحشة ،

وأصبح الصديق لايلقى الصديق إلا سأل : أين تسهر وكيف نراك ؟

والويل كل الويل لمن يحدث أبناء الزمان بأنه لايسهر إلا فى البيت وأنه يكره التبذل فى المشارب والقهوات ، وازنوا بين الحالين ، وانظروا أى المذهبين أفضل فى بناء الاستقلال .

■ ٣٦ ■

والحرص على التقاليد يعد بابا من الحرص على التراث القومى ، لأن التقاليد الصوالح لم تكن إلا ثمرات لجهود الألوف من المصلحين فى مختلف الأجيال ، وما نراعيه من الآداب فى غدواتنا وروحاتنا وأفراحنا وأحزاننا ، ليس إلا دروسا تعب فى نشرها الأسلاف ، والعاقل يحرص دائما على الأساس السليم الذى تركه الأجداد ويبنى عليه فى اطمئنان ، ولا يفكر فى زعزعة التقاليد إلا من يجهل ماسيحتاج إليه من الجهد فى تعويض الأدب المفقود

فرعاية التقاليد تنفع من وجهين :

تنفع لأنها سناد حيوى فى صيانة المجتمع

وتنفع لأنها توفر علينا جهودا كثيرة حين نفكر

فى تعويضها بآداب جديدة .

وليتذكر القارىء دائما أننى أعنى التقاليد الصوالح ، أما التقاليد الفواسد فحربها من أهم مايعنى به المصلحون .

■ ٣٧ ■

ولاينبغى أن ننسى الاشارة إلى مقام مصر الحديثة فى عالم التقاليد ، فهى اليوم تعانى أزمة لم تعرفها من قبل ، لأن مصر ليس فيها جمهور واحد ، وإنما هى جماهير كثيرة ينظر بعضها إلى بعض نظرات مختلفة لاتخلو من قلق وامتعاض .

واصطراع التقاليد فى مصر يضيع على أهلها كثيرا من الجهد والوقت ، وأكاد أجزم بأن فى كل بيت جيلين يقتتلان ، فالشاب الذى يشاهد الأشرطة السينمائية ويرى فيها مايرى من تقاليد أهل الغرب فى حياة الاجتماع ، هذا الشاب لا يتأتى له الانسجام مع أهله وذويه فى أكثر الأحيان .

ولايمكن الغض من قيمة هذه النظرة ، ولا ادعاء

أنها خيال كاتب يتوهم مالا يكون ، فقد أنفقنا من الورق والمداد مايقدر بالألوف من الجنيهات فى سبيل الجدل حول السفور والحجاب ، وقضينا سنين نختصم حول مايقدم إلى البنات من العلوم . وسنقضى أعواما كثيرة فى نضال إلى أن نتفق على ماتجب مراعاته من محمود التقاليد .

ومعاذ العقل أن أنتظر أن تخلو الدنيا من الشغب حول المبادىء والآراء ، ولكن لامفر من التنبيه إلى أننا جاوزنا حد المعقول من الخلاف .

على أنه لم يكن بد من وقوع ماوقع ، فقد أرسلنا إلى أوربا بعثات علمية ، واضطررنا اضطراراً إلى نقد ماكنا عليه من شتى التقاليد .

وأنا أطلب المستحيل حين أوصى بفض هذا الخلاف ، فهو خلاف يوجبه ظرف الزمان والمكان ، ولن تستريح مصر إلا يوم تنحاز انحيازاً تاماً إلى إحدى المدنيتين : الشرقية أو الغربية ، وأعتقد أن هذا أمل عزيز المنال ، ففى مصر قوتان : قوة الجامعة المصرية وقوة الأزهر الشريف والجامعة المصرية لن تسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية الغربية ، لأنها أنشئت لذلك ،

ولأن فيها قوى أدبية من الأساتذة الأجانب ، وهم ينقلون إليها تقاليد الغرب بلا انقطاع ، ويزيد فى خطر الجامعة المصرية أنها أمنية قومية وأن مصر تحتاج بالفعل إلى مدد من الحيوية الغربية .

ويزيد فى هذا الخطر تشوف الشبان إلى أدب أهل الغرب ، وشوقهم إلى الجرى فى ميادين جوت وبيرون ولامرتين ، وقد جروا فى ذلك أشواطا يعرفها كل من يتلمس أخبارهم فى حياة المجتمع ، وينظر مادرجوا عليه فى مذاهب الفكر والمعاش .

والأزهر لن يسكت أبداً عن الدعوة إلى المدنية الشرقية ، ولن يكف أهله عن التذكير بمجد الأسلاف .

ويزيد فى خطر الأزهر قرب أهله من قلوب الجماهير الشعبية ، وقدرته على بث الحبائل والأشراك للمدنية الغربية .

وقد ظن ناس أن الأزهر انهزم وأن مدنية الغرب لن تتركه يعيش ، ثم تبينوا بعد لأى أنهم كانوا واهمين ، وأن الأزهر نسج شبكة من الوعاظ سيطر بها على الناس فى أرجاء البلاد .

▪ ٣٨ ▪

إذن لن نصل إلى وحدة التقاليد مادام في مصـر جامعتان لاتلتقيان ، وكيف تلتقيان وقد فصل بينهما النيل : فقامت إحداهما على الضفة الشرقية ، وقامت أخراهما على الضفة الغربية ، واختلاف المواطن يؤذن باختلاف الأرواح !

لاتحسبوني أمزح ، فأنا أوقن بأن هاتين الجامعتين ستعيشان متعاديتين ، وستظلان من أسباب الفرقة في العادات والتقاليد ، وسيظل الأزهري يشعر بالغربة حين يدخل الجامعة المصـرية ، والجامعي يشعر بالغربة حين يزور الأزهر الشريف .

فما الذي نصنع لصيانة الاستقلال من زوابع هذا الخلاف ؟

أعتقد أن خير الوسائل لذلك هي الدعوة إلى

سعة الصدر ومرونة العقل ، ومن الممكن أن نروض الجيل الجديد على فضيلة التسامح ، ونربيه على فهم الواقع ، والاطمئنان الى أن الله لم يخلق الناس أمة واحدة ، وانما لونًّ فيهم وصنَّف لحكمة يدركها العاقلون .

يجب على أولى الرأى أن يحسموا الخلاف بين هذين الجيلين اللذين يعيشان فى بلد واحد ، ويصبغان العادات والتقاليد صبغات مختلفات الألوان ، ويخلقان الشغب والقلق فى كثير من الطبقات ، ويردان الأمة الى جيشين يصطرعان .

وكل خطوة فى هذا السبيل تصون بناء الاستقلال من معاول الهادمين .

تذكروا هذا ، أيها المصلحون ، واعلموا ألَّا نجاة لهذا البلد إلا بمحو العصبية التى تشب نارها من حين الى حين بسبب اختلاف التقاليد .

■ ٣٩ ■

وأنا مع هذا أعترف بأن اختلاف الناس فى العادات يخلق بينهم ضرباً من المباراة فى الحياة العقلية والخلقية ويحض كل فريق على السبق ، ويسوقه سوقاً الى ميادين النضال .

هذا حق ..

ولكن احذروا خطر الفرقة والشقاق ..

إن مهمة المصلح فى هذا العصر هى التوفيق بين هاتين الطائفتين ، ولعل التوفيق المنشود يمزج بين ماتنافر من التقاليد ، فيصل بنا إلى تقاليد جديدة تجمع بين حدة الغرب ورفق الشرق ، ويومئذ نشعر بأننا بنينا صرحاً من حميد العادات نصون به الاستقلال .

ومن المؤكد أننا خطونا فى هذا السبيل بعض

الخطوات ، فعندنا أساتذة يدرّسون فى الأزهر وفى الجامعة المصرية ، وهؤلاء الأساتذة يوفقون بين العقليتين من حيث يشعرون أو لايشعرون .

ومن عجيب المصادفات أن أكثر الذين يؤثرون فى طلبة الجامعة هم فى الأصل أزهريون ، وأن الأساتذة الذين يؤثرون فى طلبة الأزهر أكثرهم جامعيون .

ومن هنا نعرف أن التوفيق بين العقليتين تسوقه الظروف بلاعناء ، وأن الأمل فى وحدة التقاليد ليس بعيداً الى الحد الذى توهمنا منذ لحظات .

■ ٤٠ ■

أقول هذا وأنا أعرف أن الأزهر ينفر نفره شديدة من التقاليد الجديدة .

ولكن أى « أزهر » ؟ هو الأزهر الذى يتمثله فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى يكره ان يقيم الأزهريون اندية رياضية ، ويأبى عليهم أن يتبذلوا فى ملابس اللاعبين ، كما صرح فى حديث نشرته جريدة البلاغ .

ولكن الاستاذ الاكبر يعرف جيدا حكم الزمن فى تطور التقاليد ، ولذلك رأيناه يعلن انه لا يعارض فى اشتراك الأزهريين فى الاندية الرياضية ، ماداموا بعيدين عن حرم الأزهر الشريف .

والحق ان الأزهريين يتحرقون شوقا الى الاندماج فى البيئات المدنية ، وسيفضى بهم ذلك الشوق الى احدى اثنتين : الفناء فى تلك البيئات ، أو النفرة منها نفرة ابدية يعلنون بها حربا لا صلح بعدها ولاسلام ، وفى التقاليد عداوات تشبه عداوات الاجناس .

وقد اتفق لطلبة الأزهر ان مثلوا رواية مجنون ليلى مدد شهرين ليتم لهم ما يريدون من التشبه بطلبة الجامعة المصرية ، ولكنهم وقعوا فى خطأ سخيف حين مثَّل احدهم (ليلى) بلا تحرج ولا حياء .

وما احب ان استقرى الشواهد على صحة ما أذهب اليه من سعى الطبقات المختلفة بعضها الى بعض سعيا حثيثا سينتهى بالالتقاء او الاقتراب .

وكل ما ارجوه ان نظفر من هذا كله بمزاج جديد من التقاليد نصون به الاستقلال ، ونأمن به عدوان الفرقة وطغيان الشقاق .

■ ٤١ ■

ولكن كيف يرى فضيلة الاستاذ المراغى ان طلبة الأزهر يخرجون على الوقار حين يلبسون ملابس اللاعبين ؟ وكيف يسكت سعادة لطفى السيد باشا عن ذلك فلا يصون طلبة الجامعة من التبذل حين يخلعون ملابسهم ويلبسون اقمصة الالعاب ؟

الأ ترون فى مذاهب هذين العاهلين شيئا من التنافر والتضاد ؟

إن هذه الظاهرة فى اختلاف الآراء ترشدنا الى مسألة خطرة فى حياة العادات : هى اختلاف الأزياء ، ولابد من معركة فاصلة نصير بها الى زى موحد ، ونقضى بها على اصل الخلاف ، بين مذاهب التقاليد. فى الحياة المصرية .

إن اقمصة الالعاب لا تهتك وقار الأزهريين الا لأن الناس لم يتعودوا رؤية رجال الدين فى غير العمائم والجبب والقفاطين .

وليس هناك تعليل معقول غير اختلاف الأزياء ، ولو صارت الأزياء إلى أنماط موحدة لما كان هناك مايوجب الشعور بالوحشة من انضمام الأزهريين إلى صفوف اللاعبين .

وقد سمعت أن تركيا لا تبيح لرجال الدين أن يلبسوا الملابس الأفرنجية ، أو هى لا تبيح الملابس الشرقية لغير رجال الدين .

وهذه فيما أعتقد تقاليد نصرانية ، لأن النصرانية تعترف بهيئة الكهنوت ، أما الإسلام فلا يعرف مايسمى بالطائفة الدينية ، كما بين سعادة الاستاذ لطفى السيد باشا فى مقال نشره فى (الجريدة) منذ أكثر من ربع قرن .

فما الذى يفرض علينا أن نعتبر الأزياء الشرقية

وما الذى يوجب أن يظل الأزهريون محبوسين فى ملابس يحاربها التمدن الحديث ؟

وما الذى يمنع من توحيد الأزياء فى هذه البلاد ليكون ذلك تمهيدا لتوحيد التقاليد ؟

لقد ظهرت طلائع الثورة على الأزياء الشرقية منذ عشرين سنة ، فلبس الملابس الأفرنجية مشايخ مشهورون جدا ، أذكر منهم طه حسين وعلى عبدالرازق وأحمد أمين وأذكر منهم صديقنا الشيخ زكى مبارك الذى لاأتصور اليوم كيف كان يلبس الجبة والقفطان !

ومنذ عشر سنين قامت ثورة فى دار العلوم حار فى قهرها رجال المعارف وانتهت باصطناع أساتذة اللغة العربية الملابس الأفرنجية .

ومن سنتين فكر معلمو المدارس الألزامية فى هجر الملابس الشرقية ، فقاومهم وزير المعارف الأسبق معالى الأستاذ حلمى عيسى باشا .

ومنذ تسع سنين فكر طلبة الجامعة المصرية فى لبس القبعات فقاومهم سمو الأمير عمر طوسن والمغفور له سعد باشا زغلول .

ومن كل ماسلف نعرف أننا نعانى أزمة من أزمات التقاليد : هى مسألة الأزياء .

فما أنتم صانعون يارجال العصر الحديث ؟ حدثونى ماذا تصنعون ؟ أتحاربون توحيد

الأزياء فتهزمون كما انهزمتم يوم ثورة دار العلوم ؟ أم تصطنعون الرفق فتتركون التطور يأخذ مجراه وتنجون من الاصطدام بصخرة التمدن الحديث ؟

أحب أن أعرف ماأنتم صانعون ، فان الحياة حركة ، والويل كل الويل للواقفين .

مالنا نبعد عن قصد السبيل ؟ نحن نتكلم عن العادات باعتبارها من مقومات الاستقلال فلنعترف أولا بخطر التطور ، ثم لنجزم بأن المنفعة القومية تأبى مقاومة ماليس منه بد ، فلم يبق إلا أن نبذل مانستطيع فى رعاية التطور بحكمة وعقل : فلا نقاومه ولا نشجعه ، ولا ننهى عنه ولا ندعو اليه ، وإنما نترك الأمة تتقبل وحى العصر فى رفقٍ ولين ، فتأخذ مايزيدها حيوية ، وتصدف عما يَقُلّ من قيمتها الذاتية ... وهل كانت العمائم التى يلبسها الأزهريون عربية ؟ إنها قبطية ولكنهم لايعلمون !

ونحن بهذا الحياد نضمن للأمة سلامة تنفعها فى المعاش فلا نبدد قواها فيما لايفيد .

واسمحوا لى أن أنص بصراحة على أن

التمسك بالتقاليد القديمة من سمات الضعف ، ولا يتغنى بالقديم ويحرص عليه بلا تعقل غير الضعفاء .

فأقبلوا على تقاليد العصر الحاضر بلا خوف ، إلا أن يكون فيها ماينافى الأدب الحق والدين الصحيح ، ولكن احذروا الوقوع فيما يقع فيه المتطرفون ، فانكم أضعف من أن تحتملوا ماوقع بالأمم العاتية التى ثارت ثورة عنيفة على مأثور التقاليد ، وهل تحتملون ما احتملت الأمة الروسية والأمة التركية ؟

والمهم أن تفهموا أن التقاليد لاتراد لذاتها ، وإنما تراد لما فيها من نفع ، فاجعلوا المنفعة القومية رائدكم فيما تأخذون وماتدعون . والله يهديكم سواء السبيل .



أما بعد

فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط . وكنت رأيت أن أشترك في «المباراة الأدبية»

لأجرب العدل فى وطنى مرة بعد أن جربته ألف مرة ، وأنا لا أستبعد أن أفوز فى المرة الأولى بعد الألف ، فمثلى لا ييأس من العدل فى وطن وإن تغطرس الظلم واستطال . أما الآن - وقد رأيت كيف هدانى الله إلى رياضة هذا البحث الجموح - فانى أرد القلم إلى غمده مطمئنا بعد أن رأيت كيف جال بفضل الله جولة الجياد .

وحسبى من الفوز أن يعترف سعادة مدير الجامعة المصرية بأن فراسته لم تخب فى تلميذه القديم .

زكى مبارك



مرآة العقل العربي

كتاب الهلال القادم :

من قصص المتاعب النفسية لابنائنا

بقلم

أمينة السعيد

يصدر : ٥ سبتمبر ١٩٩٠

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٩٩٠/٥٢٢٥

I . S . B . N
977 - 07 - 0009 - 6

هـذا الكتاب

فى عام ١٩٣٦ دخلت مصر مرحلة سياسية واجتماعية جديرة ، اذ عقدت معاهدة مع بريطانيا انتهى بمقتضاها الاحتلال البريطانى من الناحية الرسمية ، وأجليت قوات الاحتلال إلى مراكز محددة فى منطقة قناة السويس ، وأعتبرت هذه المعاهدة فى وقتها خطوة كبيرة فى طريق الاستقلال ، وأقامت الحكومة المصرية مباريات أدبية وفنية كبرى فى الآداب والفنون احتفالا ببداية عهد الاستقلال .. ومن بينها مباراة حول المفاهيم الاجتماعية الجديدة الملائمة لعهد الاستقلال ، وكان موضوع هذه المباراة : «اللغة والدين والعادات ، باعتبارها من مقومات الاستقلال» .

تقدم إلى هذه المباراة ـ كما تقدم إلى المباريات الأخرى ـ عدد كبير من أدباء مصر ومفكريها ، وكان من بينهم الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك الذى يعتبر من أئمة الكُتاب المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين ، ولانتاجه قيمة أدبية وتاريخية كبيرة ..

وقد تقدم الدكتور زكى مبارك برسالته إلى المباراة بعد أن طبعها فى كتاب لم تزد نسخه على بضع مئات ، نفدت كلها ، حتى أوشك هذا الكتاب بعد أربعة وخمسين عاما من صدوره أن يعد مفقودا ، بالرغم من أهميته التاريخية والفكرية الخاصة ..

وسلسلة «كتاب الهلال» إذ تقدم كتاب «اللغة والدين والعادات» للقارىء فى سنة ١٩٩٠ وما بعدها ، إنما تؤدى واجبا عليها لكل القراء ، كما تؤدى واجبا حيال إنتاج الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك الذى لاقى الكثير من جحود عصره ، ولعل نشر كتابه هذا يرفع عن اسمه الكبير بعض ذلك الجحود ، وهو الذى عاش يهتف بالعدالة والوفاء ! ..


أوليمبك إليكتريك
آيس تانك
معنا في كل مكان
يحتفظ ببرودة الماء لمدة ٤٨ ساعة
يستخدم في حفظ الماء والمشروبات والعصائر.
سعة ١٠ لتر
لطلبات الجملة والتصدير
شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات